يافا ١٩٤٨

بلال محمود عمر

Odabaa
OD
2000
للنشر و التوزيع

رواية / يافا ١٩٤٨

تأليف / بلال محمود عمر

الناشر / أدباء ٢٠٠٠

الطبعة الأولى / ٢٠١٩

رقم الإيداع /٢٠١٩-١١٨٣٨

الترقيم الدولي /٩٧٨-٩٧٧-٦٧٢١-٠٠٦-٩

تدقيق لغوي / أحمد محمد عبد المنعم

غلاف / محمد علي

اتنسيق وإخراج /محمد فايز

حقوق النشر والطبع والتوزيع محفوظة لدار أدباء ٢٠٠٠ للنشر والتوزيع-٢٠١٩

لا يجوز نشر هذا الكتاب أو جزء منه أو اختصاره بقصد الطباعة واختزان مادته العلمية أو نقله بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك دون موافقة خطية من الناشر مقدما.

كل ما نُشر في هذا العمل مسؤولية المؤلف، ودار النشر غير مؤسله عما ورد في هذا العمل

دار أدباء ٢٠٠٠ للنشر والتوزيع

نشر – توزيع

01020812429 – 01099654718

العنوان: ش وهبه- فيصل – الجيزة

اهداء

إلى أرواح شهداء الشعب الفلسطيني بأكمله

إلى أفراد اسرتي الغالية، وعلى رأسهم أبي وامي حفظهم الله وأطال عمرهم

إلى رفيق الدرب الذي ولدت تلك الرواية على يديه محمد صبري

إلى أجمل امرأة رأيتها على ذلك الكوكب (هي عارفه نفسها)

وإلى من قام بمساعدتي في خروج تلك الرواية للناس أخي الأكبر سيف الباروني

نبذة تاريخية عن مدينة يافا

مدينة عربية تقع على الساحل الشرقي للبحر المتوسط، وتُعتبر نافذة فلسطين الرئيسية على البحر المتوسط، وإحدى بواباتها الهامة، وقد كانت تلعب دورًا كبيرًا وهامًّا في ربط فلسطين بالعالم الخارجي، من حيث وقوعها كمحطة رئيسية تتلاقى فيها بضائع الشرق والغرب، وجسرٌ للقوافل التجارية، ويُعد ميناء يافا هو ميناء فلسطين الأول من حيث القِدم والأهمية التجارية والاقتصادية.

يُشكل تاريخ يافا تصويرًا حيًّا لتاريخ فلسطين عبر العصور، فتاريخها يمتد إلى (٤٠٠٠ ق.م)، بناها الكنعانيون، وكانت مملكة بحد ذاتها، وغزاها الفراعنة، والآشوريون، والبابليون، والفرس، واليونان، والرومان، ثم فتحها القائد الإسلامي عمرو بن العاص، وخضعت لكل الممالك الإسلامية، إلى أن احتلها الأتراك، ثم الانتداب البريطاني، وبعده نكبة ١٩٤٨ واحتلال الصهاينة لها وتشريد غالبية سكانها.

وكانت مدينة يافا مركزًا للنشاط الثقافي والأدبي في فلسطين، حيث صدرت فيها معظم الصحف والمجلات الفلسطينية.

وكانت بها أيضًا ستة أسواق رئيسية متنوعة وعامرة، وكان بها أربع مستشفيات، وحوالي اثنا عشر مسجدًا عدا المساجد المقامة في الثكنات، وبها عشر كنائس وثلاثة أديرة.

لعبت مدينة يافا دورًا مميزًا وريادًيا في الحركة الوطنية ومقاومة المحتل البريطاني من جهة، والصهاينة من جهة أخرى، فمنها انطلقت ثورة ١٩٢٠، ومنها بدأ الإضراب التاريخي الذي عَمَّ البلاد كلها عام ١٩٣٦، ودورها الفعّال في ثورة ١٩٣٦.

وقد شهدت يافا بعد قرار التقسيم معارك دامية بين المجاهدين وحامية يافا من جهة، والصهاينة من جهة أخرى.

وبعد سقوط المدينة واقتحامها من قبل الصهاينة في ١٩٤٨/٥/١٥ جمع الصهاينة أهالي يافا في حي العجمي، وأحاطوه بالأسلاك الشائكة، وجعلوا الخروج منه والدخول إليه بتصريح من الحكم الصهيوني، ومنذ ذلك التاريخ أصبحت يافا تحت الحكم الصهيوني.

* * *

(١)

أسرة فلسطينية متوسطة الحال تعيش في مدينة يافا، يعمل الأب في ميناء يافا البحري كموظف تسليم بضائع، رجل أربعيني ذو طول فارع و ملامح عربية أصيلة، يقدس عمله لدرجة كبيرة جدًا، محبوب بين أصدقائه و عائلته، يُعرف بين زملائه بالأمانة والشرف و الخلق و التدين، والأم كانت تعمل معلمة بإحدى مدارس المدينة، تلقب بين زملائها و عائلتها بذات الوجه الملائكي بسبب ملامحها الرقيقة و الجميلة، ولديهم ثلاث أبناء "سيف الدين" الابن الأكبر كان يدرس في الثانوية العامة، يشبه أبيه من حيث كل شيء، الملامح و الخلق و الالتزام و الاجتهاد و حب النجاح و التفوق، أما الشقيق الأصغر "ليث" يدرس في المرحلة الإعدادية عكس شقيقة الأكبر تمامًا، لا يرى للدراسة أي منفعة، لا يحبها إطلاقًا ولا يحب زملائه بها، بل كرة القدم تشغل الحيز الأكبر بحياته، كان يشبه أمه أكثر من حيث الملامح و الشخصية، و"صبا" الأصغر بينهم و تدرس في المرحلة الابتدائية و نسخة مصغرة من أمها، يعشقها كل من في المنزل لأقصى درجة، جميع طلباتها مجابة، و كانت مثل شقيقها الأكبر سيف الدين تعشق الدراسة و النجاح و التفوق بها، كانت أسرة مترابطة ومنظمة إلى أبعد الحدود.

في يوم من الأيام عاد "ياسين" من العمل على وجهه علامات من الحزن والضيق، علمت زوجته ذلك من أول نظرة له، كانت تعلم ما بداخله بمجرد النظر إلى عينيه، ولكن لا تريد أن تفاتحه في شيء أمام الأولاد فقالت بشيء من الحب والحنان:

- لقد أحضرتُ الغداء والأولاد في انتظارنا على الطاولة.

وكأنها تقول له أعلم ما بداخلك وأنك مهموم، ولكن انتظر الوقت المناسب. وبعد الغداء كان الزوجان لهما عادة دائمة، وهي الجلوس في الشرفة ويقومون بتناول القهوة وتبادل الأحاديث المختلفة.

كانت الشرفة مليئة بالزهور والنباتات كما كانت تطل على بحر يافا الجميل، وكانت بها عصافير كناريا جميلة تمتلكها صغيرتهم "صبا"، تلك الجلسة كانت تنسيهم كل مشاكل وهموم الحياة .

بدأت "حورية" الحديث وقالت:

- ما بك يا "ياسين"؟ منذ عودتك من العمل وأنت لم تكن على ما يرام.

لم يقم بالرد عليها وظل سارحًا في بحر همومه قبل أن تنادي عليه مرة أخرى:

- "ياسين" هل تسمعُني؟

فأجاب هذه المرة ولكن بدون حديث اكتفى بهز رأسه فقالت في قلق:

- ما بك يا "ياسين"؟

فقال "ياسين" في حزن:

- مقدم لي رشوة مقابل أن أمرر بعض الممنوعات من الميناء.

ردت عليه بصرامة واقتضاب قائلة:

- عليك أن ترفض بكل تأكيد.

نظر إليها نظرة سخرية ثم قال بصوت حزين:

- لكنهم قاموا بتهديدي إن لم أفعل ذلك.
- عليك أن ترفض أيضًا مهما كان التهديد.
- حتى لو كان برفدي من العمل

قالت بدون تفكير:

- حتى لو كان برفدك من العمل.

ثم قامت باحتضانه بين ذراعيها وقالت بصوت به الكثير من الحب:

- الذي يرزقُ هو الله
- بالتأكيد الذي يرزق هو الل، سوف أرفض ويفعلون ما يشاءون، إني أخاف الله.

فابتسمت بسمة رضا عن قراره الحكيم.

قبل أن يؤكد "ياسين" على قراره ثانيةً قائلًا:

- لن أذهب إلى العمل مجددًا، سوف أبحث عن عمل جديد من الغد
- قرار صائب، وأنا على يقين أن الله سوف يبهرنا بعطائه
- بالتأكيد يا عزيزتي، بالتأكيد.

* * *

كان "سيف الدين" يجلس مع زملائه بمدرسة يافا الثانوية بنين، ويقومون بالتحضير للخروج بالمظاهرات ضد الفساد، وضد الدول الأوروبية التي تريد أن تسلب أرضهم وتقدمها لليهود.

- علينا جميعًا ان نتكاتف في ظل هذه الظروف العصيبة التي تمر بها بلادنا، وعدم تسليم أذننا لبعض الخونة الذين يمهدون الطريق لليهود عن طريق بيع بعض أراضي فلسطين لهم، فهم يبيعون وطنًا ودينًا من أجل حفنة من الأموال.

قال "سيف الدين" هذه الجمل بقوة فأشعلت كلماته الصادقة حماس زملائه، وانطلقت المسيرة من داخل المدرسة، ثم انتقلت لشوارع المدينة العريقة.

"سيف الدين" وصديقه "أحمد" محمولان على الأكتاف أصواتهم تجلجل في الشوارع بالهتاف، مع وجود ترحيب كبير من الناس مع المسيرة، نظر "سيف الدين" لصديقه "أحمد" وابتسم ابتسامة رضا وفرحة بسبب تجاوب الناس مع المسيرة، ثم عاد للهتاف مرةً أخرى، "قولوا قولوا للفاشية هذه الأرض عربية وستظل عربية".

ثم قام بعض جنود الحماية الإنجليزية بمساعدة رجال الشرطة الفلسطينية بالتصدي للمسيرة والاشتباك مع المشاركين بها والقبض على بعضهم.

أُصيب "أحمد" بجرح قطعي أعلى الحاجب نتيجة دفاعه هو و"سيف الدين" عن إحدى السيدات التي كانت تريد قوات الشرطة اعتقالها، ولكنهم نجحوا في انتشالها من بين أيديهم.

فوجهت السيدة الشكر لهما قائلة:

- شكرًا لكما كثيرًا عما فعلتموه معي، كنتُ سأتواجد في خبر كان لولاكم.

فقال "أحمد" في إعياء شديد نتيجة الدماء التي سقطت منه:

- لا شكر على واجب يا أمي.
- علينا الذهاب إلى المنزل لمداواة هذا الجرح، لدي بعض من الخبرة في التمريض، تواجدكم في الشارع الآن يشكل خطرًا عليكما

فهز "سيف الدين" رأسه بالموافقة عما قالته هذه السيدة؛ فهو أنسب حل الآن.

* * *

منزل بسيط يتكون من طابق واحد بداخله غرفتان: غرفه للنوم وغرفة للجلوس ويسكنه امرأة وابنتها، فبدأت السيدة الحديث قائلة:

- لا داعي للقلق، الجرح بسيط، ومعكم أيضًا طبيبة ماهرة.

رد "سيف الدين" بابتسامة خفيفة:

- بالتأكيد يا سيدتي معنا أمهر طبيبة بفلسطين.

تركا "أحمد" ليأخذ قسطًا من الراحة بغرفة النوم، وذهبا إلى غرفة الجلوس فقالت السيدة بصوت به بعض من الفضول:

- أخبرني يا "سيف الدين" عن حياتك وأسرتك، فمازال أمامنا متسع من الوقت ليصبح الشارع آمنًا وترحلوا.

فهز "سيف الدين" رأسه بالموافقة وقال:

- لكن عليكِ أيضًا أن تخبريني عن حياتك.

فهزت رأسها أيضًا بالموافقة، وبابتسامة قالت:

- بالتأكيد لدينا متسع من الوقت.

بدأ "سيف الدين" بالحديث عن حياته بشكل عام وأفراد أسرته ودراسته بدون الدخول في تفاصيل قال بابتسامة:

- هذه هي حياتي البسيطة، والآن دوركِ يا سيدتي، ولكن قبل البدء أريد معرفة اسمك.
- اسمي عائشة

ثم قامت بغلق عينيها وإسناد رأسها على ظهر المقعد الذي تجلس عليه وتنهدت تنهيدة خفيفة، ثم بدأت بالكلام بصوت حزين قائلة:

- كنتُ أعيش حياة سعيدة للغاية متزوجة بعد قصة حب قوية، وأنجبتُ فتاة هي كل حياتي الآن " فيروز"، ولكن تحوَّلت حياتي من الفرح إلى الحزن بين يوم وليلة، عندما تُوفي زوجي في حادثة سيارة وهو عائد من العمل، وتم طردي أنا وابنتي من منزلنا بواسطة أخوته، فعملتُ ممرضة بإحدى المستشفيات حتى تمكن لي شراء هذا المنزل.

لم تتمالك نفسها وسقطت بعض من الدموع على وجنتيها وتأثر "سيف الدين" كثيرًا بقصتها فقال بصوت يكسوه الحزن والعطف:

- ستتحسن الظروف بإذن الله، ومن اليوم أنا وصديقي في خدمتك أنتِ وابنتك.

سعدت "عائشة" بهذه الكلمات -حتى لو كانت على سبيل العطف والمجاملة ولن تحدث- وارتسمت على شفتيها ابتسامة خفيفة.

عادت " فيروز" إلى المنزل بعد يوم دراسي طويل، فتاة حسناء المظهر، بشرتها بيضاء يميل لون عينيها إلى لون السماء، ترتدي زيًا إسلاميًا محتشمًا، عندما رأت والدتها تجلس مع شخص لا تعرفه قالت بمزيج من الدهشة والحيرة:

- لم أكن أعلم أن لدينا ضيوفًا اليوم يا أمي.

بدأت عائشة في شرح ما حدث لها بالشارع اليوم، وما فعله هذا الشاب الشجاع هو وصديقه الذي يجلس بالداخل، وعندما أدركت " فيروز" ما حدث قامت بالاعتذار والشكر لـ "سيف الدين"، ثم أخذوا يتبادلون الأحاديث، مرة عما يحدث بالبلاد والأوضاع السياسية الخطيرة، ومرة عن الدراسة، خاصةً أن هم الثلاثة بنفس العام الدراسي، كما قام "سيف الدين" بالاتفاق معها على شرح بعض الدروس المعقدة بالنسبة لها.

خرج "أحمد" من الغرفة للرحيل بسبب تأخر الوقت، لكن عندما رأى " فيروز" لفتت انتباهه بشدة.

"ما هذه العيون؟ ما هذا الجمال الساحر؟"

كل هذا تردد بداخله في لحظات، عندما كان ينظر لعينيها يشعر بخفقات غريبة بقلبه، كان يريد الرحيل منذ بضع دقائق، الآن يريد أن يمكث في هذا البيت أطول وقت ممكن، لكن "سيف الدين" أصر على الرحيل، فتفهَّم "أحمد" ذلك، ثم تم الاتفاق بينهم على تكرار الزيارة لشرح الدروس المعقدة لـ" فيروز" ومساعدتهم في أي شيء يريدونه، هنا فقط دخلت الطمأنينة بقلب "أحمد"، كما أكد على مجيئه مع "سيف الدين" لمساعدة " فيروز" أيضًا، فهذه أكبر فرصة للتقرب ومعرفة تلك الفتاة عن قرب.

* * *

هناك عادة أسبوعية لهذه العائلة البسيطة، وهي الذهاب لصلاة الجمعة بالمسجد الأقصى، رغم صعوبة المسافة ومشقة السفر استمروا على هذه العادة منذ سنين.

كان يشعر "ياسين" بالقرب الشديد إلى الله في هذا المسجد المبارك، وبعد الأحداث الأخيرة وفصله من العمل وبحثه عن عمل جديد يحتاج الآن الذهاب إلى هناك أكثر من أي وقت مضى، للتقرب إلى الله والدعاء بفك الكرب.

صعد الخطيب على المنبر وبدأ الخطبة مهاجمًا الدول الأوروبية التي تريد تسليم أرض فلسطين لليهود لإقامة دولتهم بالقوة، كما أطلق فتوى بتكفير من يقوم ببيع أرضه لليهود، واستمرت الخطبة على هذا النهج حتى إقامة الصلاة.

بعد الصلاة جلس "ياسين" وأسرته في ساحات المسجد الأقصى مثل كل جمعة يتناولون بعضًا من الأطعمة المجهزة من أيدي "حورية"، والحديث عن كل شيء يخص الحياة بشكل عام، وتلعب وتلهو الأطفال من حولهم، كان دائمًا يرى "سيف الدين" في أبيه مثلًا أعلى يقتدي به وبمواقفه، فبدأ "سيف الدين" الحديث قائلًا:

- ما رأيك يا أبي فيما يحدث في الآونة الأخيرة؟
- ما يحدث عار على الأمة العربية والإسلامية كلها يا "سيف الدين"، اليهود والدول الأوروبية تلعب بنا مثل ما تلعب صغيرتنا "صبا" بدميتها، الوضع أصبح في غاية الخطورة، أخشى أن نستيقظ في يوم نجد العصابات اليهودية في أرضنا ونحن بلا مأوى ولا جيش يدافع عنا وعن المسجد الأقصى.

فقال "سيف الدين" بحماس:

- على جثتنا يا أبي أن يحدث ذلك، هذه الأرض لها رجال تدافع عنها، حتى إن تخلى عنها جميع العرب وبعض الفلسطينيين.

يعلم "ياسين" مدى الحماس بداخل "سيف الدين" فاكتفى بابتسامة فخر بكلمات صغيرة وموافقته عليها.

ولكن النقاش الدائر بين الأب والابن جعل "حورية" تشعر بالقلق من المستقبل، علم "ياسين" ذلك بمجرد النظر إليها، فقام بسحب يديها وأخذ يداعب أصابعها، ونظر إلى عينيها وقال بحب وبشاشة:

- لن يحدث شيء بإذن الله .

فقالت بكرب شديد:

- أتمنى ذلك، ولكن الحقيقة تبدو مختلفة.

فاحتضنها هنا وقال بهدوء وشجن:

- إن الله معنا، فلا داعي للقلق.

فرددت وهي تتنفس الصعداء:

- بكل تأكيد، بكل تأكيد

ثم نظر "ياسين" في ساعته وقال:

- حان وقت حفظ بعض آيات القرآن الكريم، يا "سيف الدين"، قم بنداء إخوتك للبدء، كفى لعبًا، أوشك اليوم على الانتهاء.

فاستجاب له "سيف الدين"، واجتمعت العائلة مرةً أخرى وجلسوا على شكل دائرة وبدأ "ياسين" في مساعدة أبنائه وزوجته في القراءة والحفظ، حتى أتى غروب الشمس وبدأت رحلة العودة إلى المنزل مرةً أخرى.

كان "ليث" لاعب كرة قدم بفريق الناشئين للنادي الارثوذكسي بيافا، لديه موهبة فذة في كرة القدم هو قائد الفريق وأهم عضو به، وأحيانا يشارك مع الفريق الأول بسبب موهبته الكبيرة رغم صغر سنه.

كان "ياسين" يخشى أن يهمل "ليث" دراسته بسبب كرة القدم، لذلك كان دائم النصيحة له بأن يترك كرة القدم وأن ينتبه لدروسه، ولكن "ليث" لم يلتفت لأي من هذه النصائح، فكانت كرة القدم حياته، ولا يريد شيئًا غيرها.

كانت أحلامه ليست مقتصرة فقط على ممارسة اللعبة داخل فلسطين، بل الذهاب لمصر وممارسة اللعبة هناك واللعب لإحدى الأندية الضخمة التي كان يقرأ عنها في بعض الصحف المصرية التي كان يأتي بها والده إلى المنزل بحكم عمله بالميناء البحري.

لكن بعد ظهور نتيجة اختبارات منتصف العام ورسوبه ببعض المواد أجبره "ياسين" على عدم الذهاب للتمرين والالتفات لدروسه، وبعد فترة من الصدامات المتتالية بين الولد وأبيه، قرر "سيف الدين" التدخل وإيجاد حلًا يرضي كلا الطرفين، وهو ذهابه للتمرين، مع التركيز بشكل أكبر على دروسه، مع وعد من "سيف الدين" لوالده بأنه هو من سيشرف عليه وعلى دروسه، وهو المسؤول الأول أمامه عن نجاح أخيه، هنا فقط وافق "ياسين" بأريحية، فهو يعلم مدى أمانة وصدق "سيف الدين".

* * *

(٢)

"الحمد لله الحمد لله الحمد لك والشكر لك يا الله"

ردد "ياسين" هذه الكلمات بصوت عالٍ وفرحة وسعادة عارمة عند دخوله من باب المنزل، فاتجه أبناؤه وزوجته نحوه مسرعين فقالت "حورية" باندهاش واستعداد للفرحة:

- ما سبب هذه الفرحة العارمة يا أعز ما أملك ؟
- أتممتُ الاتفاق مع عم "أمين" على إدارة المقهى الخاص به بمقابل أعلى مما كنتُ أتقاضاه في الميناء بدايةً من الغد.
- ألم أقل لك أن الله سيبهرنا بعطائه ؟ الحمد لله الحمد لله.

ثم أدمعت عينيها من الفرح، فهي كانت على يقين بأن الله سوف يرزقهم من حيث لا يحتسبون.

- بالتأكيد.

ثم ردد الآية القرآنية {وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ} ثم أكمل:

- ونحن اتقينا الله وخشيناه فرزقنا من حيث لا نعلم

ثم ضمها إليه في حب ثم قال:

- أحيانًا أيضًا يأتيك الرزق على هيئة زوجة مخلصة تقربك إلى الله وجنته مثلك.

ازدادت سعادتها أضعافًا بعد ذلك الكلام، واكتفت باحتضانه أكثر فأكثر، وبعد تهنئة "حورية" وأبنائه له اجتمعوا على مائدة الطعام ثم بدأ "سيف الدين" بالكلام قائلًا:

- بمناسبة هذه الأخبار السعيدة، أريد أن أخبرك شيء يا أبي، هناك فرصة ذهبية لـ "ليث" بتحقيق حلمه والذهاب إلى مصر لممارسة كرة القدم هناك.

نظر إليه "ياسين" بدهشة تليها ابتسامة سخرية ثم قال:

- أخوك مازال صغيرًا، من الممكن أن يحقق ما يريد، ولكن ليس في الوقت الحالي.
- انتظر يا أبي، هناك تفاصيل من الممكن أن تغير وجهة نظرك، هناك كشافون مصريون قادمون لاكتشاف بعض المواهب في فلسطين الأسبوع المقبل ومن سيقع عليهم الاختيار ستقدم لهم الرعاية الكاملة بمصر، و"ليث" من أقوى المرشحين.

فنظر له "ياسين" باستياء شديد وقال بحدة:

- لم تغير هذه التفاصيل وجهة نظري أيضًا يا "سيف الدين"، بعد إنهاء دراسته يفعل ما يحلو له.

فرد "سيف الدين" بنبرة صوت بها الكثير من الاستعطاف:

- أتمنى أن تفكر مجددًا يا أبي، فهي فرصة لن تُعوض.
- انتهى الحديث، ولا أريد النقاش في هذا الموضوع مجددًا.

غضب "ليث" وفرَّ سريعًا إلى غرفته ومن خلفه "سيف الدين" الذي أكد له على ذهابه لتحقيق حلمه وأدخل الطمأنينة إلى قلبه.

جالس "سيف الدين" على نهر جريشة بيافا، فهو من الأماكن المحببة إليه، فكلما ضاقت به الدنيا أتى إلى هنا

هو المكان الذي شهد أول لقاء غرامي له، يبدو عليه علامات الانتظار وقليل من الغضب الذي تحول إلى ابتسامة عندما رآها قادمة، فتاة سمراء ذات ملامح عربية أصيلة وطول فارع.

بدأ كلامه ببعض من العصبية:

- لماذا كل هذا التأخير أنتظر منذ نصف ساعة؟

بابتسامة رقيقة قالت:

- كانت لدي بعض المهام المنزلية أنجزتها وأتيت.

تفهم الأمر ثم تحولت نبرة صوته من الخشونة والغضب إلى نبرة هادئة بها الكثير من الحب والدفء والرومانسية:

- اشتقتُ إليكِ، وأصبحتُ لا أتحمل أن أراكِ مرةً واحدة بالشهر، سأفاتح أبي بموضوع عقد قراننا قريبًا.

خجلت كثيرًا وبصوت خافت وتنهيدة خجل:

- وأنا أيضًا اشتقتُ إليك.

فتحولت ملامح وجهه إلى جدية وقال:

- بعد ظهور النتيجة سأفاتح أبي وسأبحث عن عمل مؤقت لحين توظيفي، أخذت قرار بعدم استكمال الدراسة بالجامعة سأكتفي بالثانوية والوظيفة وبك

قالت بغضب:

- لا، لابد أن تستكمل دراستك فهذا حلمك وعليك تحقيقه.
- أنا حلمي الوحيد الآن هو أنتِ، ثم أن الحمل أصبح ثقيلًا على أبي، أعتقد أنَّ ذلك أنسب قرار.

فهزت رأسها بعدم الموافقة وقالت:

- الأحوال ستتحسن مع أبيك قريبًا، لقد علمتُ أنه سوف يقوم بإدارة المقهى الخاص بأبي.
- بالفعل لقد أتم الاتفاق مع أبيكِ ليلة أمس، ولكن هذا العمل غير مستقر، من الممكن أن يطرق عليه أي متغيرات في أي لحظة.
- أتمنى أن تفكر في هذا القرار مجددًا.
- أعدك بالتفكير به، ولكن لا أعدك بتغييره.
- هذا ما أريده منك فقط التفكير.
- بإذن الله.

فوقفت من مقعدها سريعًا وقالت:

- حسنًا، عليَّ الآن العودة إلى المنزل.
- وأنا سأجلس قليلًا مع النهر.

ثم بابتسامة وداع:

- أُحبك
- وأنا أعشقك.

مقهى على البحر مباشرةً، من أشهر المقاهي بيافا بسبب موقعه المتميز، أول يوم ل "ياسين" في عمله الجديد، يقوم بدور عم " أمين" بتوجيه عمال المقهى ومعرفة آراء الناس السلبية قبل الايجابية لتحسين مستوى الخدمة بها، وجمع الأموال من الزبائن.

مع أول ايام العمل أيقن "ياسين" مدى صعوبة ذلك العمل، تصل ساعات العمل إلى ١٢ ساعة وأحيانا إلى ١٤ ساعة ومنذ استلامه له لم يأتِ عم " أمين" إلى المقهى، بل كان ينتظر "ياسين" كل ليلة لإرسال الإيراد اليومي له بالمنزل، أصبح لا يرى زوجته وأولاده تقريبًا، يذهب صباحًا وهم نائمون ويعود منتصف الليل وهم نائمون أيضًا، ولا توجد عطلة أسبوعية كوظيفة الميناء، لكن الشيء الملحوظ منذ استلامه إدارة المقهى زيادة الزبائن وإيراد المقهى كل يوم عن اليوم الذي يليه، بسبب عمله الدائم على تحسين الخدمة والنظافة ومستوى الطلبات التي تقدم للزبائن.

* * *

توالت زيارات "سيف الدين" وصديقه لمنزل " عائشة" وابنتها، أصبحت العلاقة بينهم أكثر قوة وترابطًا.

اقترب "أحمد" كثيرًا من " فيروز"، ووجد أن حُسن هذه البنت الداخلي يفوق حسنها الخارجي بمراحل، وهذا ما جعله يتعلق بها أكثر فأكثر، وأن يتخذ قرار بأن يتقدم لخطبتها والارتباط بها رسميًا، وأول من يجب أن يعلم هذا القرار هو "سيف الدين" فهو أقرب شخص له كما أنه يثق برأيه كثيرًا ولمساعدته بهذه الخطوة الصعبة في ذلك التوقيت.

يجلس "سيف الدين" على ساق شجرة مستلقٍ على الأرض بفناء مدرسة يافا الثانوية بنين وبجواره "أحمد" الذي بدأ الحديث قائلًا:

- اتخذتُ قرارًا مهمًا وأريد مساعدتك

نظر إليه "سيف الدين" وبابتسامته المعهودة:

- أعرف ما هو القرار، ولكن أود أن أسمعه منك يا صديقي

-أعلم أنك تعلم بكل شيء، ولكن ما لا تعلمه أنني اتخذت قرارًا بأن اتقدم لخطبة " فيروز"، وأريد مساعدتك.

فضحك "سيف الدين" بقوة ثم قال:

- كنتُ أتوقع ذلك، أنا أيضًا اتخذت قرار بخطبة "أميرة"، وسأفاتح أبي بعد اختبارات نهاية العام الدراسي، لكن انا اختلف عنك قليلًا لن تطول فترة الخطوبة سأتزوج سريعًا بإذن الله

- مبروك مقدمًا يا صديقي، لكن كيف ستوفق بين دراستك والزواج والعمل ؟
- هذا آخر عام لي بالتعليم، سأتقدم بطلب وظيفة بالثانوية وأتزوج
- أنا مختلف عنك تمامًا، سوف أستكمل دراستي بالجامعة وأعتقد " فيروز" هي الأخرى مثلي.
- الله يوفق كل منا بطريق وبعد اختبارات نهاية العام نذهب لـ " عائشة" لنفاتحها بموضوع الخطبة، عليك الآن التركيز على دروسك ومستقبلك فقط لا غير
- شكرًا لك يا صديقي، وهذا ما سأفعله بالتأكيد.
- لا شكر على واجب يا صديقي، علينا الآن الذهاب لمتابعة الحصص فلقد انتهت فترة الراحة وجاء وقت العمل.

نظر إليه "أحمد" بابتسامة قائلًا:

- هيا بنا إلى العمل .

نهار مشمس والجو يساعد على الإبداع، "ليث" مستعد ومتحمس للاختبار أمام أكبر نجوم كرة القدم بمصر، والده لم يوافق بعد، ولكن "سيف الدين" قام بوعده إن وقع عليه الاختيار سيقنع أبيه بسفره.

أصطحب "سيف الدين" "ليث" إلى ملعب النادي الارثوذكسي، ومع أول كرة تمرر إليه قام بمراوغة رائعة للاعب الفريق الآخر، فجذب انظار كل الحاضرين إليه، وقام كل الحاضرين بالتصفيق له بحفاوة مما زاد من حماسه وأيقن أنه بات قريبًا جدًا من حلمه، عند استلامه الكرة مرة أخرى وقيامه

بمراوغة أخرى تفوق الأولى جمالًا استشاط، أحد أعضاء الفريق الآخر غيظًا، فقام بتدخل قوى على "ليث" أدى إلى طرحه أرضًا وتشوه واضح بعظام قدمه اليمنى.

توجهوا كل الحاضرين بأرض الملعب إلى "ليث" الذي يصرخ بقوة من شدة الألم، وتم نقله سريعًا إلى عيادة بجوار النادي.

- ما نوع الإصابة يا دكتور؟ هل هي خطيرة؟
- أنت صديقه؟!

فقال "سيف الدين" بانفعال:

- لا، أنا أخيه الأكبر، ما هي إصابة أخي؟
- الإصابة خطيرة جدًا وتحتاج إلى تدخل جراحي وقد تؤدي إلى عدم ممارسته كرة القدم مرة أخرى في حال فشلها لأنها إصابة نادرة.
- وما نسبة نجاح العملية في حال إجرائها؟ وماذا سيحدث لو لم يجريها؟!
- نسبة نجاح العملية ٥٠%، لو لم يجرِها تعني انتهاء نسبة ممارسته لكرة القدم مرة أخرى، أعطيته مخدرًا ليغفو قليلًا ولا يشعر بالألم لحين أن تتخذ قرارًا بإجراء العملية أم لا.

وقع كلام الطبيب على "سيف الدين" كالصدمة التي شلت تفكيره، فأخذ يردد إنا لله وإنا إليه راجعون .

- قدر الله وما شاء فعل يا "سيف الدين"، عليك الآن الذهاب للمنزل مسرعًا لإخبار والدك بما حدث حتى يتخذ قرارًا بخصوص العملية.

نظر "سيف الدين" للصوت الذي يخاطبه، فوجد الكابتن "صبري" مدرب أخيه ومتبنٍ موهبته منذ الصغر.

فهز رأسه وخرج مسرعًا من باب العيادة متجهًا إلى المقهى التي يعمل بها والده، وكان كل ما يدور برأسه حلم أخيه الذي حُرم منه إلى الأبد

وعندما رآه والده قال بهدوء يشوبه قليل من القلق:

- أهلًا يا "سيف الدين"، أول زيارة لك بعملي الجديد، لابد أن هناك شيئًا مهمًا

فهز "سيف الدين" رأسه وبدون مقدمات قال:

- أبي، "ليث" أُصيب بالاختبارات اليوم إصابة خطيرة، والطبيب أكد على ضرورة إجرائه عملية جراحية، ولابد أن تأتي معي الآن لمقابلة الطبيب

بهدوء لم يكن يتوقعه "سيف الدين":

- انتظر قليلًا حتى يأتي عم " أمين"، لن أترك المقهى للعمال
- في انتظارك يا أبي

عندما أتى عم " أمين" تفهم موقف "ياسين" وسمح له بالذهاب، وفي طريقهم إلى العيادة روى "سيف الدين" لوالده كل شيء بالتفصيل، ولكن صدم أيضًا من ردة فعل والده الهادئة الذي أتم الاتفاق مع الطبيب على إجراء العملية في صباح اليوم التالي على أن يتم نقله لمستشفى الدجاني الخاص بيافا، ترك

"سيف الدين" يبيت مع أخيه وذهب هو إلى المنزل ليبلغ "حورية" ويعود باكرًا.

وفي اليوم التالي جلس "ياسين" على باب غرفة العمليات يقرأ بعضًا من آيات القرآن الكريم، وبجواره "سيف الدين" يقوم بالدعاء لأخيه بنجاح العملية، و"حورية" سوف تأتي هي و"صبا" بعد انتهاء يوم "صبا" الدراسي، وعند خروج الطبيب من غرفة العمليات اتجه نحو "ياسين" و "سيف الدين" قائلًا :

- الحمد لله تمت العملية بنجاح ومن الممكن أن يعود معكم إلى المنزل في خلال يومين، على أن يأتي كل يومين إلى المستشفى لإجراء جلسات العلاج الطبيعي بعد شهر من الآن.

فقال "ياسين":

- الحمد والشكر لك يا الله، شكرًا لك كثيرًا يا دكتور، هل يمكننا الدخول للاطمئنان عليه الآن ؟
- لا شكر على واجب، بالتأكيد وبعد ساعات قليلة يمكنكم التحدث معه أيضًا بعد انتهاء أثر المخدر
- شكرًا لك ثانيةً يا دكتور.
- لا شكر على واجب ثانيةً يا رجل يا طيب

أتت "حورية" و"صبا" إلى المستشفى، واتجهت العائلة بأكملها إلى غرفة "ليث" للاطمئنان عليه، فكان مازال تحت تأثير المخدر فقال "سيف الدين":

- عليك الآن يا أبي العودة إلى العمل، وأنتِ يا أمي اذهبي أنتِ و"صبا" إلى المنزل وأنا سأظل بجواره، ويمكنكم المجيء مرة أخرى في الليل للتحدث معه والاطمئنان عليه بشكل أكبر.

هز "ياسين" رأسه بالموافقة كما هو حال "حورية"، واتجه كل منهم إلى وظيفته في الحياة.

قبل أن يفاجئها صوت "سيف الدين" من الخلف قائلًا:

- أمي، أريد بعض من الكتب؛ فالاختبارات أصبحت قريبة للغاية، ولا يوجد مزيد من الوقت لإضاعته.

هزت رأسها مرة أخرى بالموافقة وتابعت السير في اتجاه المنزل.

* * *

اجتمعت الأسرة بغرفة "ليث" بالمستشفى ومعهم كابتن "صبري" الذي لم يتركه تمامًا، قد انتهى تأثير المخدر، لكن "ليث" لا يريد التحدث تمامًا، الصدمة كانت قوية، بعد أن كان قريبًا جدًا من حلمه انتهى كل شيء في ثوانٍ.

ظل "سيف الدين" وأبيه وأمه حتى صغيرتهم "صبا" يعطون له جرعة أمل عن طريق إبلاغه بإمكانية مواصلة حلمه بعد بضعة أشهر، كما أن أبيه أكد له بموافقته على ذهابه إلى مصر رغم علمه بأنه بنسبة كبيرة لن يستطيع ممارسة كرة القدم ثانيةً، لكنه يريد مساعدة ابنه على تجاوز الأزمة والخروج من حالة الحزن، ولكن كل محاولاتهم باءت بالفشل

قبل أن يميل عليه الكابتن "صبري" وبصوت خافت في أذنيه قائلًا:

- لدي مفاجأة لن تعرفها إلا إذا رأيت ابتسامتك المعهودة

نظر "ليث" إليه نظرة حيرة وظل صامتًا قبل أن يفاجئه الكابتن "صبري" مرة أخرى قائلًا:

- لن تندم إذا ابتسمت، سوف تبتسم لك الدنيا

هنا ابتسم "ليث"، ولكن ابتسامة مصطنعة لمعرفة سر الكابتن "صبري" فقال له الكابتن "صبري":

- أحد الكشافين أكد لي استمرارهم في الاهتمام بك، ومنتظرون عودتك من الإصابة، وهذا يتوقف على إرادتك التي أثق بها، فأنا على يقين أنك ستعود أفضل مما كنت، وترك لي رقم هاتفه للاتصال به بعد شفائك.

هنا ابتسم "ليث"، ولكن ابتسامة من أعماق قلبه، كلمات الكابتن "صبري" أحيت الأمل بداخله وتحول في غضون خمس دقائق من شخص لا يريد الحياة، إلى شخص مليء بالتفاؤل والأمل والإصرار على استكمال حلمه، وتحول حزن كل أفراد الأسرة إلى سعادة بعد عودة الابتسامة إلى صغيرهم.

لكن يدور سؤال برأس "ياسين"، ماذا قال "صبري" إلى "ليث" ليغيّر مزاج ابنه بهذه السرعة؟ قبل أن يفاجئه الكابتن "صبري" بطلب الحديث معه على انفراد

فبدأ الكابتن "صبري" حديثه قائلًا:

- أريد منك في حالة شفاء "ليث" وعودته إلى مستواه ألا تقف أمامه وأمام حلمه، "ليث" خلق لكرة القدم، الله أعطاه موهبة لم يعطها لأحد
- أعتقد أن الدراسة أهم من أي شيء الآن، وحين انتهائه من دراسته يفعل ما يشاء
- "ليث" لو لم يستمر بممارسة كرة القدم سيفشل في الدراسة، ولكن يستطيع النجاح بالدراسة وكرة القدم، وتوجد مدارس وجامعات كثيرة بمصر وأنا سأتواجد معه لرعايته، فأنا -كما تعلم- وحيد ولست متزوجًا وليس لدي أي ارتباطات هنا في يافا أو في فلسطين عمومًا؟
- حين اكتمال شفائه نعيد التفكير مجددًا.

فقال "صبري" بفرحة تدل على الانتصار:

- شكرًا لك، وأنا على يقين أنك ستوافق بإذن الله

اكتفى "ياسين" بابتسامة فقط وعادوا إلى الغرفة مجددًا.

* * *

(٣)

انتهت اختبارات نهاية العام الدراسي و"سيف الدين" و"أحمد" في انتظار ظهور النتيجة للبدء بتنفيذ خططهم المستقبلية.

لكن "سيف الدين" بدأ مبكرا بالبحث عن وظيفة، يقوم يوميًا بإجراء مقابلات عديدة للتوظيف، ولكن لم يوفق في أي منهم حتى الآن، وفي نهاية اليوم يذهب لـ "أحمد" في المنزل ليجلس معه أو العكس.

في ليلة ظهور نتيجة اختبارات نهاية العام الدراسي، ذهب "سيف الدين" لـ "أحمد" بالمنزل لقضاء الليل معه وذهابهما معًا في الصباح الباكر لمعرفة النتيجة.

يجلسان بشرفة منزل "أحمد" يقومان بتناول القهوة العربي ويتبادلان الأحاديث السياسية والاجتماعية والشخصية.

فبدأ "أحمد" الحديث قائلًا:

- كيف حال "ليث" الآن يا "سيف الدين"؟!
- الحمد لله، سوف يذهب للطبيب بعد يومين لفك قدمه والبدء في برنامج العلاج الطبيعي بإذن الله.
- الحمد لله، شفاه الله وعفاه، وسيعود أفضل مما كان بإذن الله

فقال "سيف الدين" بابتسامة قلقة :

- إن شاء الله يا صديقي، التوتر يزداد لدي، باقٍ بضع ساعات على ظهور النتيجة، لن تغفو عيني الليلة من القلق

ثم نظر إلى السماء وقال:

- يا رب وفقني أنا وعبدك المسكين هذا، ثم أشار على "أحمد"

ضحك "أحمد" ثم قال:

- "أمين" يا رب، ثم لماذا أنت قلق ؟! فأنت الأول على الدفعة السنة الماضية، ماذا نفعل نحن والأول على الدفعة قلق؟

ضحك "سيف الدين" بصوت عالٍ وأخذ يقرأ المعوذتين ويخمس بوجه "أحمد" تعالت الضحكات بينهم ثم قال "أحمد":

- لا يؤثر الحسد معك، لا تقلق

ظلا يتبادلان الأحاديث حتى آذان الفجر، ذهبا للصلاة ثم عادا إلى منزل "أحمد" ثانيةً لتناول الفطور ثم الذهاب إلى المدرسة لمعرفة النتيجة

عندما ذهبا إلى المدرسة تفرقا، ذهب "سيف الدين" ليرى نتيجة "ليث"، و"صبا" بالجزء الخاص بالإعدادي والابتدائي، و"أحمد" اتجه ليرى النتيجة الخاصة بهم، لكنه وجد زحامًا شديدًا أمام كشوفات النتيجة، فقرر انتظار "سيف الدين" لمساعدته في الوصول للنتيجة في ظل هذا الزحام، وعندما أتى "سيف الدين" بابتسامته العريضة قال "أحمد" بسخرية:

- ابتسامتك توضح تفوق أخوتك مثلك يا متفوق

فقال "سيف الدين" بفرحة عارمة :

- الحمد لله، "صبا" مثل أخيها الكبير الأولى على المدرسة، و"ليث" أكرمه الله بالنجاح هذا العام الحمد لله
- كنت أتوقع ذلك، عائلة العباقرة، يجب علينا اقتحام هذا الزحام الآن

فنظر له "سيف الدين" وأشار إلى كتفه وقال :

- سوف أحملك على كتفي؛ لتصبح أعلى من الناس وتستطيع أن ترى النتيجة
- فكرة موفقة

حمل "سيف الدين" "أحمد" الذي أخذ يقرأ الكشوفات من أعلى حتى أن وصل إلى اسمه فأخذ يردد:

- الحمد لله الحمد لله (بصوت عالٍ)، نجحتُ يا سيف وترتيبي على الدفعة الخامس، لكني لم أجد اسمك

فقال "سيف الدين":

- مبرووووك يا صديقي، أسرع بدأت ألا أشعر بكتفي
- وجدته

فقال "سيف الدين" ببعض من التوتر :

- ماذا فعلت ؟

فاخذ "أحمد" يضحك بصوت عالٍ ثم قال قبل أن يفقد "سيف الدين" أعصابه:

- كالعادة يا سيف الأول أيضًا، لا أعلم لماذا تأتي لترى النتيجة يا رجل، فأنت تعلمها من قبل الاختبارات، مبرووك يا أستاذ

فرحة هيستيرية من "سيف الدين" حقق ما كان يريد:

- الله يبارك فيك يا صديقي، سوف أذهب إلى المنزل سريعًا لإخبار أمي وأبي قبل ذهابه للعمل وسأفاتحه بالموضوع الآخر، أراكِ في الليل أمي، أو غدًا لنذهب لـ " عائشة" لنفاتحها بموضوع خطبتك أنت و" فيروز "
- اتفقنا، موفق يا صديقي بإذن الله
- بإذن الله

* * *

لم يكن يشعر "سيف الدين" بأقدامه، بل كان يشعر بأنه طائر يرفرف باتجاه المنزل من السعادة التي سوف تكتمل بموافقة والده على زواجه، أخذ يطرق على الباب بقوة حتى استيقظ كل من في المنزل.

قال "ياسين" بلهفة وقلق:

- ماذا فعلت يا بني أنت وأخوتك بالنتيجة ؟!
- -الحمد لله يا أبي، أنا و"صبا" رفعنا رأسك كالعادة وترتيبنا الأول على المدرسة.
- و"ليث"؟! كالعادة راسب بالطبع

- لا "ليث" ناجح أيضًا، أعتقد أن الإصابة جاءت بفائدة هذه المرة
- الحمد لله، ألف ألف مبروك لكم يا أحبابي، بمناسبة هذه الأخبار السعيدة كل منكم يطلب طلبًا وسينفذ.

بدأت "صبا" بطلبها أولًا:

- أريد حلوى كثيرة تملؤ خزانتي
- عُلِم وسيُنفَّذ يا أحلى "صبا"، وأنت يا "ليث"؟!
- أريد حذاءً جديدًا لارتدائه عند شفائي بإذن الله
- سوف يُؤتى لك حذاء وطقم رياضي كامل، أنت صنعت المعجزة هذه السنة يا أستاذ "ليث"، وأنت يا "سيف الدين"؟!
- -أنا طلبي كبير جدًا يا أبي، وأتمنى أن توافقني وتساعدني على ما أريد
- ما هو الطلب الذي يحتاج لكل هذه المقدمة؟
- أبي، لقد حققت جزءًا كبيرًا من أحلامي الدراسية، وسوف أكتفي بها، والآن أريد أن أتزوج.
- ماذا؟! تتزوج؟!

ثم أطلق ضحكة سخرية واستكمل كلامه قائلًا:

- ومن صاحبة الحظ التي وقع عليها الاختيار؟
- "أميرة" بنت عم " أمين"، قبل أن تبدي رأيك يا أبي، بعد النتيجة وتفوقي سوف أحصل على وظيفة بسهولة كمعلم بالمدرسة للمرحلة الابتدائية وسأقوم بتأجير الشقة المغلقة التي بالدور الرابع
- وماذا عن الجامعة وأحلامك؟!

- أنا اتخذتُ قرارًا باكتفائي بهذا القدر من التعليم، سواء تزوجت أو لم أتزوج

فنظر "ياسين" إلى زوجته وقال:

- ما رأيك يا "حورية" في هذا الكلام؟
- "سيف الدين" فاتحني في هذا الموضوع من قبل، وأنا أريد منك أن تحقق له رغبته.
- أنا آخر من يعلم
- لا يا أبي، كل شيء بموافقتك، وإن كنت لا تريد ذلك سوف أمحو الفكرة من رأسي.
- هذه حياتك وقرارك وليس لي أن أتدخل، أنت رجل وتستطيع اتخاذ قراراتك بذاتك، سأفاتح عم " أمين" الليلة بالقهوة، وإن وافق سأحدد معه ميعادًا

هنا انطلقت زغرودة قوية من "حورية" لنجاح أبنائها الثلاثة، واقتراب ابنها الأكبر من الزواج، كما لم يصدق "سيف الدين" أن أباه قد وافق وازدادت سعادته أضعافًا وعادت السعادة للمنزل بعد غياب لفترة طويلة .

* * *

في صباح اليوم التالي ذهب "أحمد" لـ "سيف الدين" بالمنزل للذهاب معه لـ "عائشة" ليتقدم لخطبة ابنتها، قال "أحمد" بمزيج من القلق والانفعال:

- انتظرتُك أمس ولم تأتِ، وانتظرتك الليلة بضع ساعات منذ استيقاظي ولم تأتِ أيضًا، ظننتك لم تتذكر موعد ذهابنا لـ " عائشة "
- لا تقلق يا صديقي، كنتُ أنتظر أبي لمعرفة رد عم " أمين"، ولكن أبي أخبرني بأن عم " أمين" لم يأتِ القهوة ليلة أمس، وسوف يفاتحه الليلة بالموضوع، وهو يعود بعد منتصف الليل فغفوتُ وأنت أيقظتني الآن.
- أبوك وافق على الزواج ؟؟

اكتفى "سيف الدين" بابتسامة وقيامه بهز رأسه.

- ألف ألف مبروك يا صديقي، بإذن الله تكتمل الفرحة بموافقة أبيها، وموافقة " عائشة"
- إن شاء الله، سوف أتناول فنجان القهوة ونذهب إلى "عائشة"
- أنا لم أتناول فطوري بعد، سوف أتناول معك فنجان قهوة وبعضًا من الفطائر وأمري إلى الله

ضحك "سيف الدين" قائلًا:

- حسنًا، انتظرني بالشرفة، أحب أن أتناول القهوة في الصباح أمام البحر وفي أذني صوت عصافير "صبا "

فضحك "أحمد" وقال بسخرية:

- حسنًا، بانتظارك يا سيد العاشقين

فلكمه "سيف الدين" في صدره وضحك ورحل بينما ظل يلعب "أحمد" مع الكناري، حتى أتى "سيف الدين" بالقهوة وبعض من الفطائر، وبعد انتهائهم من الفطار ذهبا لـ "عائشة" لإنجاز المهمة التالية.....

* * *

استقبلت " عائشة" "أحمد" و"سيف الدين" بترحاب كبير:

-أهلًا أهلًا يا شباب، كيف حالكم ؟ !

فرد "سيف الدين" قائلًا:

- الحمد لله بأفضل حال، وأنتِ و" فيروز"؟
- بخير الحمد لله
- دائمًا في أحسن حال إن شاء الله
- نحن وأنتم إن شاء الله، ما أخبار النتيجة؟

فرد "سيف الدين" بسعادة وفرحة عارمة:

- الحمد لله أيضًا، أنا الأول، و"أحمد" الخامس على المدرسة، وماذا عن "فيروز"؟!
- ألف ألف مبروك، " فيروز" ترتيبها الثاني على المدرسة الحمد لله والفضل يعود لله ثم لكما

رد "أحمد" قائلًا:

- نحن لم نفعل شيئًا، هي من اجتهدت واستحقت.

ثم نظر إلى "سيف الدين" وغمز بعينه إشارةً منه للبدء في الموضوع فاستجاب "سيف الدين" لصديقه وقال :

- أين " فيروز" يا " عائشة"؟ !
- بغرفتها، هل تريدونها بشيء
- نريد أن نبارك لها لكن ليس الآن، يوجد شيء أهم الآن، "أحمد" يريد أن يقوم بخطبة " فيروز "

فنظرت لهم عائشة وقالت باندهاش وصدمة:

- ما هذه المفاجأة؟! وأعتقد أن " فيروز" لا تفكر في هذا الموضوع في الوقت الحالي

فاستمر "سيف الدين" في صراحته قائلًا:

- أعتقد أنا أنها تريد "أحمد" مثل ما هو يريدها .
- على كل حال سوف أفاتحها بالموضوع
- شكرًا يا عائشة، نستأذن نحن الآن وسوف نأتي لك بالغد لمعرفة الرد

قالت بابتسامة:

- حسنًا، سوف أنتظركم على الغداء

رد "سيف الدين" بابتسامة:

- لكن نحن لا نريد أن نكلفك

- لا يوجد تكليف، فتلك العزومة لكم من أجل تفوقكم، سوف أنتظركم، يشرفنا حضور والدك ووالدتك يا "أحمد"

فرد "أحمد" والسعادة تغمره:

- بالتأكيد سوف يأتون معنا، مع السلامة يا أجمل "عائشة "

فردت بابتسامة:

- مع السلامة يا أستاذ "أحمد"

اتجهت عائشة إلى غرفة "فيروز" مباشرةً، وجدتها تصلي فانتظرت حتى انتهت من صلاتها وبدأت تتحدث معها قائلة:

- تقبل الله يا " فيروز "
- منا ومنكم يا أمي
- هل تعلمين من كان هنا ؟
- لا، كنت مشغولة بقراءة الكتب وبعد ذلك الصلاة
- "أحمد" و"سيف الدين" كانوا هنا، و"أحمد" يريد أن يتقدم لخطبتك

هنا ابتسمت " فيروز"، وتحول لون بشرتها ناصع البياض إلى الاحمرار من الخجل

- اعتبر هذه الابتسامة موافقة منك ؟

اكتفت " فيروز" بابتسامة أخرى

- غدًا سوف يأتي هو و"سيف الدين" وسأبلغهم بموافقتنا، ولكن لابد من وجود أبيه وأمه معه
- بالتأكيد سوف يأتون معه، أحبك يا أمي

ابتسمت " عائشة" وقالت:

- وأنا أيضًا، وأتمنى أن تصبحي أسعد إنسانة بالدنيا، سوف أذهب لإحضار طعام الغد، هل تأتين معي ؟
- بالتأكيد سوف آتي معك، هيا بنا.

* * *

يجلس "سيف الدين" في الشرفة ينتظر أبيه، القلق يسيطر عليه ويدعو الله بأن يعود أبيه بموافقة عم " أمين"، وعند عودة "ياسين" إلى المنزل اتجه "سيف الدين" إليه مسرعًا، وجهه لم يكن على ما يرام، يبدو عليه علامات الحزن .

فقال "سيف الدين" في قلق:

- ماذا بك يا أبي ؟! ألم يوافق عم " أمين"؟!

اكتفى "ياسين" بالنظر إليه ثم توجيه وجهه أرضًا بدون أي حديث، تحطمت كل أحلام "سيف الدين" في هذه اللحظة، ودفن وجهه بين كفيه وبدأت تتساقط منه بعض الدموع، فقام "ياسين" باحتضان صغيره وهمس في أذنه ببعض الكلمات قائلًا:

- لم أكن أعلم أنك تُحب "أميرة" لهذه الدرجة، على العموم الميعاد الخميس القادم بمنزل عم " أمين."

ثم أطلق ضحكة قوية وتركه وذهب إلى غرفته.

رفع وجهه من بين يديه، وتحولت دموع الحزن إلى دموع فرح وسعادة لا توصف، فقد تحققت أكبر أحلامه، وأصبح لا يفصله عن "أميرة" سوى بضعة أسابيع، وسوف يجمعه الله بها في الحلال.

* * *

"أين أنا ؟! ما هذه الجدران السوداء ؟! ما هذا الظلام ؟! أين عائلتي! أين زوجتي! أين أبي وأمي ؟! ماذا حدث ؟!"

وأخذ يضرب على الجدار بقوة ويصرخ:

- -يا الله، أين أنا ؟ هل أحد يسمعني هنا.

حتى أتاه صوت من الخارج يقول:

- اصمت
- من أنت ؟ وأين أنا ؟ هل أنتم من قمتم باحتلال أراضينا ؟!
- أصمت حتى لا نأخذك إلى نوبة التعذيب

لكن استمر على هذا الحال حتى خارت قواه وسقط أرضًا مغشيًا عليه.

(٤)

يجلس كل من "أحمد" ووالده ووالدته على مائدة الطعام بمنزل " عائشة"، كما تقوم " فيروز" بإعداد مظهرها بغرفتها، وتقوم "عائشة" بتحضير الطعام وإرساله إلى الصالة ووضعه على المائدة بواسطة "سيف الدين"، أمامهم أفضل أنواع الطعام وأهمها المقلوبة والبط والملوخية، فقال والد "أحمد":

- رائحة الطعام تحرك لعابي، يبدو أن حماتك ماهرة بالطبخ يا "أحمد".

فضحك وقال:

- بالطبع يا أبي، و" فيروز" أيضًا مثلها

وبعد الانتهاء من وضع الطعام بأكمله، حان وقت دخول " فيروز" إلى الصالة، التوتر والقلق متملكان منها بشكل قوي، وعند دخولها فوجئ كل من والد ووالدة "أحمد" بجمال وأناقة هذه البنت، وبدأ والد "أحمد" بمداعبتها مما زاد من خجلها وجعل وجهها يزداد احمرارًا أكثر مما هو عليه.

فقال والد "أحمد" بعد الانتهاء من الغداء:

- الطعام شهي للغاية، شكرا كثيرًا على هذه الوليمة، المرة القادمة سوف تأتون أنتم إلينا يا حماة ابني
- لا شكر على واجب، بالتأكيد الأيام بيننا كثيرة، فقد أصبحنا أهلًا الآن

- بالتأكيد، ربنا يدم بيننا المعروف

ثم ذهبت "عائشة" و" فيروز" لإحضار القهوة والشاي بعد الطعام بينما جلس كل من "سيف الدين" و"أحمد" ووالده ووالدته بالصالة.

نظر والد "أحمد" إليه ثم بابتسامة:

- اختيار موفق يا بني، جمال وأدب وأخلاق

بينما اكتفت والدته بالنظرات وبعض الأصوات الناتجة من فمها تشير إلى عدم موافقتها، فهي كانت تريده لبنت أخيها، ولكن تصميمه وموافقة والده سبب وجودها معهم الآن.

فقال "أحمد" وهو ينظر إلى والدته:

- الحمد لله يا أبي، وسوف تكتمل فرحتي برضاء أمي عن الخطبة التي اكتفت بنظرة غاضبة ثم توجيه وجهها بعيدًا.

عادت عائشة وابنتها إلى الصالة بالمشروبات، وبدأ والد "أحمد" بالحديث عن تفاصيل الخطبة، وتم تحديد ميعاد الخطبة التي ستقام قبل زفاف "سيف الدين" بيوم، وتم الاتفاق على كل شيء، وانتهت الجلسة بقراءة الفاتحة.

هنا أطلقت " عائشة" زغرودة قوية تشير إلى مدى السعادة بداخلها، فهي لم تشعر بهذه الفرحة منذ وفاة زوجها، وتمنت وجوده بيوم كهذا، ولكن إرادة

الله فوق كل شيء، ثم رحل كل من والد ووالدة "أحمد" و"سيف الدين"، وظل "أحمد" جالس مع " فيروز" و"عائشة".

- أخيرًا تحقق ما كنتُ أتمنى منذ أول نظرة إلى عيونك.

هكذا أطلق "أحمد" كلماته ببعض البسمات الخفيفة مع النظر بعينيها، وهنا زاد وجه "فيروز" احمرارًا وجمالًا، واكتفت بالابتسام والنظر إلى الأرض.

- لا مجال للخجل الآن، لن أتركك إلا عند سماع كلمة أحبك.

زاد الخجل على وجهها وقالت:

- لا ليس الآن، فيما بعد.
- لا، الآن يا أجمل ما رأت عيني، وإلا سوف أذهب لـ "عائشة" بالداخل وهي تحكم بيننا.
- لا لا انتظر (ثم نظرت إليه وبصوت خافت)، أُحبك
- وأنا أصبحت غير قادر على العيش بدونك، أعشقك.

ثم قام بسحب يديها وقبَّلها، فقامت بسحبها سريعًا، ونادت بصوت عالٍ:

- يا أمي، "أحمد" يريد أن يسلم عليكِ قبل أن يرحل

فظل يضحك حتى أتت " عائشة" وودعته ورحل.

* * *

عاد "ليث" للتدريبات بشكل طبيعي مع فريقه بعدما تعافى من الإصابة الخطيرة التي لحقت به مؤخرًا، عقد الكابتن "صبري" جلسة مع "ليث" قبل بداية المران، أكد له بهذه الجلسة على ذهابهم إلى مصر قريبًا بعد استعادة جزء من مستواه، وتحدث معه أيضًا على بعض الأمور الفنية، ووجوب إنقاص بعض من الوزن الزائد خلال فترة الإصابة، كما أخبره بمشاركته بجزء من المباراة الودية بعد انتهاء المران.

بدأ "ليث" بالركض بتراك الملعب مع زملائه ببداية المران، ثم قاموا ببعض التمارين العضلية الخفيفة، يتضح على وجه "ليث" علامات التركيز والحماس بكل تمرين، مما زاد التفاؤل لدى الكابتن "صبري."

وبعد انتهاء التمرين بدأت المباراة الودية التي شارك "ليث" بها بالدقيقة ٦٠، أحرز هدفًا وقدَّم أداءً جيدًا يشير إلى موهبته الكبيرة، ينقصه فقط استعادة لياقته البدنية وإنقاص بعض من الوزن الزائد، وتلاشي فكرة تكرار الإصابة التي تسيطر عليه.

تحدث معه كابتن "صبري" بعد المباراة عن الأشياء اللازمة لاستعادة مستواه، لم يتحدث "ليث" تمامًا بهذه الجلسة، اكتفى فقط بهز رأسه حتى انتهى كابتن "صبري" من الحديث، فنظر إليه وابتسم وذهب إلى التراك مرة أخرى للركض لإنقاص الوزن ورفع معدل اللياقة البدنية، ليؤكد لكابتن "صبري" على جديته الفترة القادمة للعودة سريعًا والسفر، فجلس الكابتن يشاهده من بعيد وبداخله إحساس أن هذا الولد سيصبح من أهم لاعبي الوطن العربي بسبب إصراره وحماسته وحبه لكرة القدم بجانب موهبته

الكبيرة، ظل يركض لمدة ساعة متواصلة قبل أن يقوم الكابتن "صبري" بالإشارة له بإنهاء التمرين والتوجه إليه وقال ببشاشته المعهودة:

- بعد ما شاهدته منك الليلة من إصرار وحماس، سوف أتحدث مع المسؤولين بمصر لتحديد موعد السفر بإذن الله.
- شكرًا لك كثيرًا يا كابتن، لن أجد أحدًا يقف بجانبي مثلك
- أنا مؤمن بموهبتك، وأتوقع لك مستقبلًا مبهرًا بكرة القدم، ومن الآن فصاعدًا أنا أبوك الثاني.
- بالتأكيد أنت فعلت، وسوف تفعل ما لم يقدر على فعله أبي، فأنت أبي الروحي .

سعد كثيرًا كابتن "صبري" بهذه الكلمات، واكتفى بهذا القدر من الحديث واكتفى بالابتسامة بوجه "ليث"، ثم اتجه كل منهم إلى منزله.

* * *

عقد قران "سيف الدين" و"أميرة" بالمسجد الأقصى، يجلس المأذون بمنتصف المسجد، وعلى يمينه "سيف الدين" الذي كان يرتدي بدلة سوداء، وعلى يساره عم "أمين" بالرداء الفلسطيني التراثي الذي يفضّله، بينما يجلس أمامهم بعض من الأهل يتابعون مراسم عقد القران.

التوتر واضح على "سيف الدين"، فهو شخص خجول ولا يشعر بالارتياح بالتجمعات والأفراح، واليوم جميع الأعين تراقبه في كل حركة وكل همسة مما زاد من توتره وخجله، وبعد انتهاء المأذون من مراسم عقد القران انطلقت الزغاريد من النساء، ثم ذهب "سيف الدين" لـ "أميرة" ونظر لها

نظرة كانت كفيلة للتعبير عن كم الحب والسعادة التي بداخله في هذه اللحظة وابتسم، ثم توجها إلى السيارة التي ستقوم بزفافهما ونقلهما إلى قاعة العرس بيافا.

كان في انتظارهم الكابتن "صبري" بالقاعة بيافا، وفي انتظار "ليث" على وجه الخصوص لإخباره بموعد السفر بعد يومين، على "ليث" تحضير أغراضه وأوراقه وملابسه من الآن؛ فالوقت ضيق للغاية.

بينما يجلس على الطاولة التي بجواره كل من "أحمد" و" فيروز" الذين لم يمضِ على خطبتهم سوى بضع ساعات بعد إقامة حفل الخطوبة بالأمس، وتجلس معهم " عائشة" وجه الخير على "أحمد" و"سيف الدين" كما كانا يطلقان عليها.

وبالطاولة المجاورة عم كوهين جار "ياسين"، فهو يهودي الديانة ولكن فلسطيني الجنسية والهوية، ورافض لفكرة بعض اليهود بإقامة دولة يهودية على الأراضي الفلسطينية كما ترددت الأنباء بقوة الفترة الماضية، هو يرى أن فلسطين دولة عربية تجمع كل الديانات والطوائف يعيش بها كلًا من المسلمين واليهود والمسيحيين في سلام وحب، ولا يجوز لأحد تخريب هذه الدولة بداعي الدين، حتى لو كان الدين اليهودي.

عند وصول "سيف الدين" و"أميرة" إلى القاعة ارتفع صوت زغاريد النساء وتصفيق الحضور، بعد ذلك أدى كل من "سيف الدين" و"أميرة" بعضًا من الرقصات مع الأهل والأصدقاء، بعد انتهاء العرس ذهب كل من عائلة "ياسين"، وعم "أمين" لإيصال "سيف الدين" و"أميرة" إلى منزلهم الجديد،

والذي كان بالطابق العلوي لمنزل "ياسين"، ثم استضاف "ياسين" عم " أمين" وزوجته بمنزله، وعند دخول كل من "سيف الدين" و"أميرة" للشقة نظر إليها بحب وقال:

- أخيرًا جمعنا الله بمنزل واحد، كم كنتُ أشتاق لهذه اللحظة يا أميرتي

خجلت كثيرًا "أميرة" بعد سماع تلك الكلمات من "سيف الدين" وابتسمت ثم قالت بصوت خافت:

- وأنا أيضًا

ثم أطلق "سيف الدين" العنان لأول قُبلة بحياته على فم "أميرة" مما زاد خجلها وجعلها تبتعد قليلًا عنه، فقام "سيف الدين" بتغيير الموضوع سريعًا

- علينا الآن الذهاب للوضوء حتى نبدأ حياتنا الجديدة بركعتين لله .
- حسنًا، اذهب للوضوء، وأنا سوف أذهب لتغيير ملابسي قبل الوضوء

وبعد انتهائهم من الصلاة أطلق كل منهم العنان لقلبه وجسده، وقضى كل منهم ليلة من أجمل الليالي التي لن تُمحى من ذاكرتهم .

قام "ليث" بتحضير جميع أغراضه وفي انتظار كابتن "صبري" بالمنزل للسفر، بينما ذهب "ياسين" إلى العمل وقام بتوديع "ليث" قبل الذهاب وإعطائه بعض النصائح، ثم فضَّل عدم الانتظار في آخر لحظات صغيرة؛ بالمنزل فهو لا يحب لحظات الفراق، بينما يجلس كل من "سيف الدين" و"حورية" و"صبا" و"أميرة" مع "ليث" لتوديعه.

وعند وصول كابتن "صبري" احتضنت "حورية" صغيرها بكل قوة وخانتها الدموع وسالت على وجنتيها وزادت قوة العناق أكثر فأكثر بين الأم والابن واستمرت لبضع دقائق فقال "صبري" لضيق الوقت:

- -لا داعي للقلق يا ست "حورية"، "ليث" في أيد أمينة وبعد مرور أول شهرين سوف يأتي لزيارتكم، السيارة بانتظارنا بالأسفل يا "ليث"، هيا بنا

هنا فقط انتهى العناق بعد كلمات كابتن "صبري"، ثم قام "ليث" بوداع سريع لـ "سيف الدين" و"صبا" و"حورية"، ثم ظل واقفًا على باب المنزل ينظر إليهم وينظر للمنزل نظرات من الممكن أن تكون الأخيرة، فهو لا يعلم ما سيحدث معه ببلد غريبة لا يوجد بها أصدقاء أو أهل أو زملاء، لا يوجد بها سوى كابتن "صبري" وكرة القدم.

قبل أن يتدخل كابتن "صبري" وقام باحتضانه والخروج به من باب المنزل، وقام بتهدئته وتذكيره بحلمه وهم على الدرج وفي طريقهم إلى السيارة.

انطلقت السيارة في طريقها إلى مصر، ظل "ليث" صامتًا فترة طويلة ينظر من زجاج النافذة فقط، حتى خلق معه كابتن "صبري" نقاشًا كرويًا عن بعض الفرق المصرية ليتمكن من إخراجه من حالة الحزن التي تسيطر عليه، قبل أن يفاجئه "ليث" بسؤال لم يكن يتوقعه خارج موضوع النقاش تمامًا .

- لماذا لم تتزوج حتى الآن ؟! "سيف الدين" أخي يصغر عنك بثلاثين عام تقريبًا وتزوج، كما حال "أحمد" صديقه وكل الرجال.

فتغيرت ملامح وجه كابتن "صبري" وقال باندهاش:

- لماذا هذا السؤال الآن ؟
- لأن لولا عدم زواجك كنت سأظل بفلسطين ولن أخرج منها، فأريد معرفة سبب عدم زواجك الذي جعلني في طريقي لتحقيق حلمي

فهز كابتن "صبري" رأسه ثم قال:

- سوف أروي لك السبب الحقيقي لعدم زواجي حتى الآن، السبب الذي لا يعرفه أحد حتى وقتنا هذا، ظللتُ دائمًا أبحث عن الحب الحقيقي والزواج الغير تقليدي، أبحث عن فتاة يدق قلبي لأجلها ويدق قلبها لي، نقوم ببناء حياتنا معًا بداية من المنزل الذي سوف يحتوي هذا الحب، وصولًا بأولادنا الذين سوف نقوم ببناء شخصيتهم وحياتهم معًا، ولكن لم أجد ما أريد، أبي وأمي -رحمهم الله- كان حلمهم أن يشاهدوا أطفالي، وعرضوا عليَّ الكثير من الفتيات الحسناوات، ولكني كنتُ دائم الرفض .
- وإن وجدت هذا الحب بهذا السن سوف تتزوج ؟
- لِمَ لا؟ بالتأكيد، لا أحد يعلم ماذا يخبئ لنا الله غدًا

بابتسامة رضا عما قاله "صبري"، قال:

- أتمنى أن تجده وتتزوج

بابتسامة أيضًا قال "صبري":

- إن شاء الله، ممكن أن تنام قليلًا مازال الطريق طويلًا
- حسنًا سأغفو قليلًا

- وأنا أيضًا، أحلام سعيدة
- لي ولك إن شاء الله

فقام كل منهم بوضع رأسه على زجاج النافذة وذهبا إلى عالم الأحلام.

* * *

أول يوم لـ "سيف الدين" بعد التعيين كمدرس تاريخ بمدرسة يافا الإعدادية بنين، توجه نحو غرفة المعلمين بالمدرسة لترتيب المكتب الخاص به والتعرف على زملائه الجدد، فهو أصغر المعلمين سنًا بالمدرسة، ولكن وجد ترحيبًا كبيرًا من زملائه، وخصوصًا الأستاذ "إبراشي"، فهو كان معلمه بالمرحلة الإعدادية، وكان "سيف الدين" من أنجب تلاميذه، وكان دائم التوقع له بمستقبل كبير.

جلس "سيف الدين" مع الأستاذ إبراشي وأعطاه بعض من النصائح؛ فهو صاحب خبرة كبيرة بعالم التدريس، ثم تحدثا عن الأوضاع السياسية الخطيرة التي تمر بها البلاد وعدم الاستقرار وتمهيد بعض اليهود لإقامة دولة يهودية على الأراضي الفلسطينية، حتى دق جرس الحصة الأولى وذهب كل منهم إلى حصته.

دخل "سيف الدين" إلى الفصل ثم بدأ بتعريف نفسه إلى الطلبة، لا يوجد فرق سن كبير بينهم، مما جعله يطلب منهم أن تكون العلاقة بينهم علاقة صداقة وليست علاقة تلميذ بمعلم، ثم طلب منهم أن يعرِّف كل منهم نفسه، وبعد الانتهاء تحدَّث معهم بموضوع نوى أن يكون أول حديث له مع تلاميذه به.

- قبل أن ابدأ في شرح المنهج المقرر عليكم، أريد أن تعلموا أنَّ نحن من نصنع التاريخ، وأن الأحداث العالمية تدل على أن الفترة القادمة ستصبح أصعب فترة في تاريخ فلسطين، وأنتم من سوف تسطرون تاريخ فلسطين للأجيال القادمة، أريد منكم أن تدافعوا عن هذه الأرض لآخر قطرة دماء لديكم، هذه الأرض عربية وستظل عربية .

وبعد انتهائه من الرسالة التي أراد إيصالها إلى التلاميذ، وجد ترحيبًا قويًا وردَّة فعل إيجابية من تلاميذه، ووقف بعض من التلاميذ وقاموا بالتصفيق له بقوة، فطلب منهم الجلوس وبدأ شرح أول درس بالمنهج حتى دق جرس انتهاء الحصة الأولى، وذهب مرة أخرى إلى غرفة المعلمين وعلى وجهه علامات السعادة بعد البداية الموفقة من وجهة نظره.

وصل "ليث" إلى القاهرة -وبالأخص إلى منطقة السيدة زينب- حيث كان يسكن كابتن "صبري" منذ عدة أعوام، فزيارته الأولى للقاهرة التي كانت بغرض العمل، منزل متوسط المستوى يتكون من غرفتين وشرفة تطل على سوق السيدة زينب، قام "ليث" باختيار أحد الغرف وترتيبها، ثم ذهب إلى الشرفة حيث يتواجد كابتن "صبري".

- ما رأيك بالمنزل والسيدة زينب يا "ليث"؟؟

فقال "ليث" بنبرة صوت دافئة أقرب للحزن:

- المنزل جميل، ينقصه أبي وأمي وأخوتي فقط، والمنطقة بسيطة وجميلة، لكني لم أتعرف عليها بشكل كافٍ حتى الآن.
- على يقين بأنك سوف تتعلق بها مثلي.

- إن شاء الله، الأهم الآن أريد الاتصال بأبي لأطمأنهم عليَّ
- يمكنك الاتصال به من تليفون "سونة" البقال، ولكن لديكم تليفون بالمنزل ؟
- لا، سوف أتصل به على الرقم الخاص بالمقهى، أين مكان "سونة" البقال ؟ ؟ !

فأشار له من الشرفة ثم قال:

- سوف آتي معك، هيا بنا.

ذهبا إلى سونة البقال الذي رحب بكابتن "صبري" بقوة واستقبله استقبالًا حافلًا، ثم ذهب "ليث" إلى التليفون وبدأ بطلب رقم المقهى لم يرد عليه أحد في المرة الأولى، فكرر الاتصال ثانيةً، فوجد صوت أبيه هو المجيب.

- السلام عليكم
- عليكم السلام، أنا "ليث" يا أبي، كيف حالك ؟ أفتقدك كثيرًا يا أبي
- وأنا أيضًا يا "ليث" أفتقدك كثيرًا، ولكن أنت الآن تحقق حلمك، لا تجعل شيئًا يؤثر عليك، وتذكر دائمًا ما قلته لك
- شكرًا لك أنك جعلتني أفعل ما أريد، نصائحك دائمًا في خاطري ولن أنساها، ادعُ لي يا أبي، في "الصباح" أول تمرين لي .
- لا تقلق، دعاءي لك لا ينقطع، اعتنِ بنفسك وبغذائك وتمرينك ودراستك، ولا تشغل بالك بأي شيء آخر.
- حسنًا، سوف أفعل ذلك بإذن الله، أرسل سلامي لأمي وأخوتي، خصوصًا "سيف الدين"، وأنا سوف أتصل بك يوميًا بإذن الله .

- يصل إن شاء الله، وأنا سوف أنتظر مكالمتك يوميًا، ولكن من أين تتصل بي؟
- من بقال تحت المنزل يُدعى "سونة"، ورقمه ******** حتى تتصل بي وقت ما تريد أنت أيضًا.
- حسنًا، إن شاء الله.

انتهت المكالمة بين "ليث" وأبيه وعاد للمنزل مرة أخرى، أشعلت المكالمة حماس "ليث" جعلته ينتظر التمرين على أحر من الجمر وبداية الدراسة بأسرع وقت حتى يحقق التفوق ويجعل أباه فخورًا به.

(٥)

أسود يوم في تاريخ الشعب الفلسطيني ١٩٤٨/٥/١٥، حيث قامت قوات الكيان الصهيوني باحتلال عروس البحر الأبيض المتوسط "مدينة يافا"، وجمعت كل سكان المدينة بحي العجمي وأحاطت الحي بالأسلاك الشائكة، وجعلوا الخروج والدخول بتصريح، وأطلقوا عليها عملية درور.

يجلس كل من "ياسين" وعم "أمين" وعائلتهم أرضًا بعدما تم إخراجهم بالقوة من منازلهم، وظل يبحث "سيف الدين" على صديقه "أحمد" وسط الحشود الضخمة التي أُجبرت على ترك منازلها والتجمع بحي العجمي، عندما وجد صديقه وأمه وأبيه أرسلوهم إلى مكان تواجد عائلة "سيف الدين"، ثم ذهبوا معًا للبحث عن " عائشة" و" فيروز. "

هناك حشد هائل وصريخ بعض من النسوة، فأسرع كل منهما إلى مكان الحشد، فوجدوا " عائشة" تتشاجر لفظيًا مع جندي صهيوني، بينما تقف " فيروز" بجانبها يرتعد جسدها خوفًا ورهبة، أشار "سيف الدين" لـ"أحمد" باتجاه " فيروز" ليأخذها ويرحل واتجه هو نحو " عائشة"، و في هذه اللحظة قام الجندي بلطم " عائشة" لطمة قوية على وجهها فسقطت أرضًا، وهنا استشاط "سيف الدين" غيظًا، فركض بكل سرعته وقوته نحو الجندي فأخذه وسقط أرضًا، وأخذ يسدد له اللكمات بقوة، قبل أن يتدخل بعض من الجنود لمساعدة زميلهم، وطرحوا "سيف الدين" أرضًا وانهالوا عليه بالضرب المبرح، فتحول وجهه وجسده إلى بحيرة من الدماء وفقد الوعي تمامًا، فأرسلوه هو وعائشة التي أصبحت مقيدة اليدين إلى مكان احتجاز كل من قاموا بالمقاومة وعدم الاستسلام.

عندما عاد "أحمد" لمكان الشجار ثانية ولم يجد أحدًا أخبره بعض من المتواجدين عما حدث، ودلوه على مكان احتجازهم.

عندما ذهب لهم فرأته " عائشة" فنادت بأعلى صوت لديها (" فيروز" أمانة لديك يا بني) وكررت الجملة أكثر من مرة، ثم أشارت له بالرحيل خوفًا عليه، فعاد وأخبرهم عما حدث، فوقع الخبر كالصاعقة على زوجة "سيف الدين" و"حورية" و" فيروز" و"ياسين" الذين ظلوا يرددون إنا لله وإنا إليه راجعون.

* * *

جالس كابتن "صبري" بمقهى حلاوة بالسيدة زينب ينتظر عودة "ليث" من المدرسة، مقهى شعبي قديم، يجلس بالطاولة المجاورة له بعض

من العمال البسطاء يتحدثون عن عملية احتلال اليهود لمدينة يافا بفلسطين وبعض المدن المجاورة لها، وإعلان الدولة الإسرائيلية رسميًا، وأن قد أُعلن عن الخبر فجر اليوم في الراديو.

وهنا تدخل كابتن "صبري" في الحديث قائلاً :

- هل هذه الأخبار أكيدة ؟

ليرد العمال عليه بصوت واحد:

- أكيدة

عقله غير قادر على تصديق ما تسمعه أذنيه، وبعد تأكيد الخبر له من كل المتواجدين صدم وشل تفكيره للحظات، ولكن بعد ذلك اتخذ قرارًا بإخفاء الخبر عن "ليث" أكبر وقت ممكن، وذهب سريعًا لعم "سونة" البقال لاستخدام التليفون والاتصال بـ"ياسين" للتأكد من الخبر، ولكن وجد الخط مرفوعًا من الخدمة، وهنا أيقن أن الخبر حقيقي وأن بلاده قد احتُلت، فعاد إلى المنزل مشتت الفكر في انتظار عودة "ليث"، ولكن حدث ما كان لا يتمناه كابتن "صبري"، الخبر انتشر بسرعة كبيرة، وأصبح حديث كل الشعوب العربية الكبار والصغار، بما فيهم "ليث" الذي علم الخبر بالإذاعة المدرسية صباحًا.

وبعد دخوله المنزل مباشرةً وبانهيار، أطلق هذه الكلمات في وجه كابتن "صبري":

- بلادنا قد احتُلت يا كابتن، أبي وأمي وأخوتي في خطر الآن، ولا أعلم ماذا حدث لهم، هل قد أُعتِقلوا أو توفي أحد منهم، قرار السفر من البداية كان خطأ، ويجب علينا العودة في أسرع وقت ممكن، لابد من وجودي بجانب أسرتي في ذلك التوقيت.
- نحن لا نعلم الغيب، اهدأ واجعلنا نفكر وننتظر بعضًا من الأيام لنشاهد ماذا سيحدث من المتغيرات، بالتأكيد لن تصمت الدول العربية على هذه المهزلة، وأيضًا من الصعب جدًا عبور الحدود الآن، لا نملك سوى الدعاء لهم والانتظار.
- سوف أقوم بتحضير أغراضي للسفر في أي وقت، ولن أنتظر كثيرًا.
- أنصت لي جيدًا يا "ليث"، أنت الآن مسئول مني وأنا ولي أمرك هنا، وغير مسموح لك ولي بالسفر في تلك الظروف، وسوف ننتظر ونرى ما سيحدث.

وهنا دخل "ليث" في نوبة بكاء بسبب إحساسه بالعجز ومدى اشتياقه لأهله الذين قد لا يراهم ثانيةً، فقام كابتن "صبري" بعناقه وتهدئته ووعده بأن كل شيء سوف يصبح على ما يرام، وفي خلال أيام سيتواجد مع عائلته، فاستجاب للحديث وهدأ قليلًا، ولكن امتنع عن الطعام، وذهب لغرفته ودفن رأسه تحت وسادته وظل يبكي حتى جفت دموعه.

* * *

في اليوم التالي أعلنت الدول العربية التالية (مصر، سوريا، الأردن، السعودية، لبنان، العراق) الحرب على الميليشيات اليهودية المسلحة في فلسطين.

وعند وصول الخبر لـ "ليث" وكابتن "صبري" وهم بالمقهى شعروا ببعض من السعادة الممزوجة بالقلق على عائلاتهم والشعب الفلسطيني ككل، واستبعد "ليث" فكرة السفر والعودة لفلسطين في الوقت الراهن، وقرر العودة للوطن بعد انتهاء الحرب وانتصار العرب كما كان يهيأ له ولكابتن "صبري".

وعند عودتهم إلى المنزل جلسا بالشرفة يتناقشان حول الحرب، وعدد الجنود التي أرسلت، والأموال التي دعمت بها المملكة العربية السعودية، فطرح "ليث" سؤالًا كان الغرض منه القضاء على الشك والقلق المتواجدين بداخله.

- هل تتوقع نجاح الجيوش العربية بطرد الميليشيات اليهودية من أراضينا؟!
- في حالة عدم مساعدة الدول الغربية كإنجلترا وأمثالها لهذه الميليشيات، سوف ننتصر بإذن الله.
- أعتقد أنهم سوف ينالون المساعدة، معنى ذلك أننا سنُهزَم
- لا، سوف ننتصر بإذن الله، ثق بي، ودورنا الآن الدعاء لهم بكثافة
- بإذن الله، بالتأكيد ليس بإمكاننا شيء غير الدعاء لهم ولعائلتي التي لا أعلم عنها شيئًا حتى الآن

فربت "صبري" على ساق "ليث" وقال:

- لا تقلق قريبًا سوف يريح الله قلبك ويطمئنك عليهم
- يا رب، أتمنى ذلك.

- إن شاء الله سيحدث
- إن شاء الله

يا "صبري" يا "ليث"، تليفون لكما من فلسطين، (هكذا كان يردد عم "سونة" البقال بأعلى صوت لديه من الأسفل)، فأخذا درجات السلم بأقصى سرعة لديهم دون أن يرتديا شيئًا بأرجلهما حتى وصلا إلى الدكان، فسحب "ليث" سريعًا سماعة التليفون وبصوت متقطع بسبب الشهيق والزفير.

- السلام عليكم، من معي؟
- أنا أبوك يا "ليث"، كيف حالك وحال "صبري"؟
- الحمد لله يا أبي، أنت كيف حالك وحال أخوتي وأمي؟؟ وماذا عن الحرب؟ ومن أين تتصل بي الآن؟
- الحمد لله الجميع بخير ويرسل لك السلامات، تركنا يافا وذهبنا لغزة بشقة عم " أمين" القديمة، حل مؤقت لحين تحسن الأوضاع بإذن الله
- أريد العودة يا أبي، أشتاق لك ولأمي ولكل فلسطين، و"سيف الدين" بالأخص، أفتقده كثيرًا، هل يتواجد بجانبك؟
- ونحن أيضًا نشتاق لك، وقريبًا سنلتقي بإذن الله، ولكن عليك الآن الاهتمام بدروسك وتدريباتك فقط، لا "سيف الدين" غير متواجد ذهب للتسوق
- حسنًا، أخبره حين يعود بمعاودة الاتصال بي، أين أمي؟
- سوف أخبره إن شاء الله، بالداخل مع النساء سوف تعاود الاتصال بك لاحقًا أيضًا.
- حسنًا، معك كابتن "صبري" يريد التحدث معك

- كيف حالك يا "ياسين"؟
- الحمد لله كلنا بخير، أنصت لي يا كابتن دون أن تظهر أو تشعر "ليث" بأي شيء

فنظر كابتن "صبري" لـ "ليث" وقال:

- حسنًا
- الأحوال لدينا ليس على ما يرام كما أخبرت "ليث"، ف"سيف الدين" مُعتقل، ونجتمع كلنا في شقة صغيرة في غزة، الأموال لدينا قاربت على النفاذ، ولن أستطيع أن أرسل إليك مرتبًا شهريًا كما كان الاتفاق بيننا، واليهود في غاية الوحشية، يقتلون الاطفال ويغتصبون النساء دون أي رحمة، ادعُ لنا بفك الكرب وإزاحة الغمة، وصيَّتك "ليث"، اعتنِ به جيدًا ولا تعودا إلى فلسطين تمامًا في الوقت الحالي
- الله معكم يا "ياسين"، وإن شاء الله تنتهي الحرب قريبًا على خير ونصر لنا، ولا تقلق على "ليث" تمامًا، ولا تحمل هم المال، كل شيء هنا على ما يرام
- شكرًا لك كثيرًا يا كابتن
- لا شكر على واجب يا "ياسين"، ف"ليث" بني

وهنا انقطع الاتصال، فوضع "صبري" يده على كتف "ليث" وقال:

- الحمد لله، الآن نستطيع أن ننام جيدًا، فكل شيء هناك على ما يرام وعائلتك كلها بأمان، كل ما عليك الآن التركيز في تدريباتك ودراستك يا بطل.

فتنفس "ليث" الصعداء وقال:

- الحمد لله، بكل تأكيد سوف أفعل كل ما بوسعي حتى أحقق ما أريد

زاد الحمل على "صبري" بعد هذه المكالمة، لابد الآن أن يبحث عن عمل؛ فلن يقدر "ياسين" على إرسال المبلغ المتفق عليه كل أول شهر، فكانت مكالمة بها الكثير من المعاني أسعدت "ليث" بسبب اطمئنانه على أسرته، وإخفاء الجزء السيء عنه، وأحزنت "صبري" وزادت الحمل عليه.

* * *

قرر "أحمد" الانضمام للمقاومة والجيش العربي المتواجد بفلسطين، ولكن لم يخبر أحدًا حتى الآن بهذا القرار، وقرر أن يخبر الجميع بالاجتماع الليلي المعتاد منذ مجيئهم لغزة.

اجتمعوا بغرفة الجلوس وبدأوا في تقسيم المهام، النساء لا يتركن المنزل لأي سبب من الأسباب، وظيفتهن الأعمال المنزلية فقط حتى تتحسن الأوضاع، و"ياسين" ووالد "أحمد" وظيفتهم البحث عن مكان احتجاز " عائشة" و"سيف الدين"، وعم " أمين" و"أحمد" وظيفتهم الذهاب للسوق لشراء متطلبات المنزل .

ثم دارت أحاديث ونقاشات جانبية، فوقف "أحمد" من على مقعده وطلب منهم الهدوء حتى يتمكن من إخبارهم بقراره المهم قائلًا:

- سوف أنضم للمقاومة والجيش العربي مع أصدقائي.

فساد الصمت في الغرفة لبضع ثوانٍ، ثم تحولت الغرفة لحلبة نقاش ما بين مؤيد ومعارض، الشيء الوحيد الذي كان يخشاه نقطة ضعفه الوحيدة " فيروز"، أن تؤثر على قراره وتجعله يتراجع عنه، ولكن فوجئ بردة فعلها وتأييدها له، مما أعطاه قوة وحماس أكثر وأكثر.

فطلب منهم الهدوء ثانيةً وبدأ في شرح أسباب هذا القرار قائلًا:

- أولًا: يجب أن ندافع عن هذه الأرض بآخر قطرة دمًاء لدينا، وإذا وفقنا الله وانتصرنا وكتب لي الله حياة جديدة فالحمد لله، وإذا استشهدت فهذا ما أريده وأطلبه من الله في كل صلاة، ثانيًا: هذا الانضمام سوف يساعدني على الوصول لمكان احتجاز " عائشة" و"سيف الدين" إن شاء الله، ثالثًا: هذا قراري واتخذته ولا تراجع فيه بإذن الله.

فقام "ياسين" باحتضانه وربت على كتفه وقال:

- كنتُ أعلم أن "سيف الدين" لن يخالل إلا رجالًا. (وابتسم ورحل)

فانتهت الجلسة وذهبت " فيروز" إلى الشرفة ومن خلفها "أحمد "

- بماذا يفكر القمر؟

هكذا بدأ "أحمد" الحديث معها بابتسامة

- بأمي، أشعر بأني لن أراها ثانيةً، لن أستطيع العيش دونها
- استعيذي بالله من الشيطان، وتذكري دائمًا أن غدًا أفضل، ستعود " عائشة" وسوف نتزوج وننجب أطفالًا عيونهم زرقاء مثلك

هنا ابتسمت " فيروز" ابتسامة تخفي حزنًا كبيرا بداخلها:

- هل تعدني أن " عائشة" سوف تعود وأنت أيضًا سوف تعود لي سالمًا
- اعدك بإذن الله، ثم قبل يديها، وقام بمسح بعض الدموع التي سالت على وجهها .

ثم اتجهوا سريعًا إلى الداخل بعد صرخات متتالية من "حورية"، فوجدوا "أميرة" فاقدة للوعي وبجانبها "حورية" تستنجد بالصرخات، فحملها "أحمد" إلى غرفة النساء، وذهب سريعًا للبحث عن طبيب.

* * *

(٦)

تجلس على الأرض منهكة، ثيابها ممزقة، تتساقط قطرات الدماء من فمها، معصوبة العينين، أحست بأرجل تقترب أكثر فأكثر من باب الزنزانة حتى تم فتح الباب ثم فك العصابة من على عينيها، في البداية كانت الرؤية غير متضحة ثم بدأت في الإتضاح شيئًا فشيئًا.

وجدت رجلين أحدهما ضخم الجسد وأشقر البشرة، ويتضح أنه غير عربي، والآخر قصير ونحيف الجسد وأسمر البشرة، وذو ملامح عربية وتشعر أنها رأت هذه الملامح من قبل.

بدأ الضخم الكلام بلغة غريبة، وحين انتهى بدأ الرجل الثاني بالترجمة للغة العربية

- لماذا اعتديتِ على الجنود بالسب والضرب ؟!
- هذه أرضي، ومن الطبيعي أن أدافع عنها ضد أي مغتصب لها بالقوة
- لا، هذه أرض اليهود بالأصل واقرأي التاريخ
- هذه الأرض عربية وتشمل كل الديانات السماوية: مسلم، مسيحي، يهودي، يعيشون في سلام وحب، ولكن اليهود خونة، وكان يجب علينا طردهم من أراضينا العربية، يستحقون هتلر ونازيته

وهنا ركلها الضخم ركلة قوية في ذراعها، فسمعت صوت عظام ذراعها الأيمن وهي تتهشم، فصرخت من شدة الألم وسقطت على الأرض .

- هل هي أرض اليهود أم أرضكم الآن ؟!

بصوت منهك من شدة الألم قالت:

- عربية، وستظل عربية يا خونة يا أحفاد القردة

فهنا أعطى الرجل الضخم إلى الرجل القصير إشارة لجلب شيء من الخارج، فذهب وعاد بـ"سيف الدين" معصوم العينين، ووجهه ينزف دمًا، يتضح على جسده آثار التعذيب بالسياط، ثم تم ربط أطرافه بسلاسل حديدية متصلة بالحائط.

- هل تحب الجنس ؟

لم يجب "سيف الدين" على السؤال واكتفى بالصمت

- سترى مشهدًا جنسيًا مباشرًا الآن .

ثم أعطى الرجل الضخم الإشارة بفك العصابة التي على أعين "سيف الدين"، ففوجئ "سيف الدين" بكوهين صديق أبيه متواجد معهم وينفذ أوامرهم، ووجد " عائشة" أرضًا تنزف وتتألم .

اقترب الرجل الضخم من " عائشة"، وبدأ في تمزيق ملابسها تمامًا وهي تقاوم، ولكن بلا فائدة في ظل تقييد حركتها بالسلاسل والألم.

ظل "سيف الدين" يصرخ ويبكي ويحاول فك أي من أطرافه، ولكن باءت محاولاته بالفشل، أدت فقط إلى جروح قوية بأطرافه، واستمر الرجل الضخم في اغتصاب "عائشة" أمام أعين "سيف الدين" الذي ظل يضرب رأسه

بالحائط ويصرخ حتى فقد الوعي، وفي هذه اللحظة أوقف الرجل الاغتصاب، وأمر الجنود ببدء حفلة تعذيب جديدة بعد إفاقة "سيف الدين" ورحل، بينما ظلت عائشة عارية تبكي وتصرخ بانهيار حتى فقد جسدها القوة وذهبت إلى عالم آخر.

* * *

حصل الكابتن "صبري" على عمل بتدريب إحدى فرق الناشئين بالنادي الذي يلعب له "ليث" بسبب علاقته القوية بالمسؤولين، واستقرت الأوضاع المالية لديهم، وصب "ليث" تركيزه بالدراسة والتدريب فقط كما طلب منه أبوه.

كما انفجرت موهبة "ليث" بالأيام القليلة الماضية، وأصبح عنصرًا أساسيًا بفريق الناشئين في وقت قليل جدًا، واقترب جدًا من المشاركة بتدريبات الفريق الأول برغم صغر سنه، وأنساه هذا الأمر بعضًا من آلامه واشتياقه لأسرته .

وبالفعل بعد عدة أيام تم تصعيده للتدريب مع الفريق الأول، فكان أصغر لاعب يشارك بتدريبات فريق أول على مستوى أندية مصر، وتحدثت عنه بعض الصحف المصرية، وينتظر الجميع أول مشاركة له ليشاهدوا الفتى الفلسطيني ذا الموهبة الفذة بكرة القدم.

وبعد هذا التألق الغير متوقع، قرر كابتن "صبري" أن يأخذ "ليث" ويذهبا لمولد السيدة زينب، ثم الجلوس على ضفاف النيل، فمنذ مجيئهم إلى مصر لم يفارق "ليث" المنزل إلا للتدريب أو للمدرسة.

و عند دخول "ليث" لساحات المولد، ظهر على وجهه علامات الانبهار والإعجاب بكل شيء حوله، بألعاب النيشان التي يقف عليها الشباب والأطفال بالطوابير، وأشكال الطراطير التي على رؤوس الصبية التي تلعب وتلهو، وبحلقات ذكر النبي صلى الله عليه وسلم، أشياء لم يرها من قبل، شعر بالدفء والأمان وسط هؤلاء البشر البسطاء، وتمنى أن لا ينتهي المولد تمامًا، ثم ذهبا لأداء صلاة العشاء بمسجد السيدة زينب الذي انبهر أيضًا بتصميمه الرائع وبصوت الإمام العذب، وبعد انتهاء جولتهم بالمولد، ذهبا ليستنشقا الهواء النقي على ضفاف نهر النيل، واحتساء حمص الشام الدافئ، والاستمتاع بالنظر لجمال ذلك النيل الذي انبهر به "ليث" مثل انبهاره بالمولد، وأصر على ركوب إحدى المراكب الشراعية والاستمتاع عن قرب .

بعد نفس عميق من كابتن "صبري" قال:

- ذكرتني بالأيام الخوالي، عندما كنتُ أعمل بمصر وكانت تضيق بي الدنيا، كان النيل والمراكب الشراعية ملجأي الوحيد .

فاكتفى "ليث" بابتسامة خفيفة واستمر في استمتاعه بالنظر إلى ذلك النهر العظيم واستنشاق ذلك الهواء النقي.

وبعد انتهاء جولتهم ذهبا لإجراء مكالمة لفلسطين، ولكن باءت محاولتهم بالفشل بعد انقطاع كل خطوط التليفونات بفلسطين، فعادا إلى المنزل وجلسا بالشرفة يتناقشان ببعض الموضوعات الكروية والسياسية والاجتماعية، ويتناولان القهوة والشاي بحليب المشروب المحبب لدى "ليث"، فبدأ "ليث" الحديث قائلًا:

- كم كنتُ أتمنى أن يتواجد "سيف الدين" معي الآن ويشاهد نجاحي، ولكني لم أستطع سماع صوته منذ يوم سفرنا، كم أشتاق له ولنصائحه، لن أسامح نفسي إن لم أستطع رؤيته ثانيةً
- لا داعي للقلق يا بني، بإذن الله سوف ينتصر الجيش العربي، ونعود قريبًا لترى "سيف الدين" وأسرتك كلها.
- أتمنى ذلك، ولكن قلبي لا يشعر بأن ذلك سوف يتحقق
- ثق بي وبكلامي، ولن تخسر أبدًا
- إن شاء الله، سوف أذهب للنوم حتى أستطيع أن أستيقظ مبكرًا للمدرسة
- وأنا أيضًا، فاليوم كان صعبًا وطويلًا بسبب المولد، تصبح على خبر طرد اليهود من أرضنا
- آمين.

* * *

القلق يسيطر على كل المتواجدين، الجميع بانتظار "أحمد" للعودة بالطبيب، مازالت "أميرة" فاقدة للوعي وفشلت محاولات إفاقتها.

وبعد مجيء "أحمد" بالطبيب توجه سريعًا إلى الغرفة المتواجدة بها "أميرة"، الكل منتظر بالخارج عدا "حورية" ووالدتها، وبعد انتهاء الطبيب من الكشف أخبرهم بأن لا داعي للقلق؛ فالضغط منخفض بسبب الحمل.

لم يكن أحد يتوقع أن "أميرة" حامل وفي الشهر الثاني، ولكن كانت مفاجأة سعيدة لهم، أعطاها الطبيب إحدى العقاقير التي تسببت في إفاقتها، ثم أكد لها على ضرورة متابعة الحمل معه في عيادته، ورحل.

جلست "حورية" على الجانب الأيمن من السرير، ووالدة "أميرة" على الجانب الأيسر، وبينهما "أميرة"، ثم قامت "حورية" باحتضانها وبدأت في إعطائها بعض النصائح بفرحة وسعادة قائلة:

- مبرووك يا ابنتي، عقبال عودة "سيف الدين" لنا قريبًا بإذن الله، من اليوم لا تفعلي أي شيء، عليكِ والراحة فقط لا غير
- الله يبارك فيكِ يا أمي، كم كنتُ أتمنى تواجد "سيف الدين" معي في هذه اللحظة.
- قريبًا سوف يأتي ويتواجد مع ابنك أو ابنتك القادمة بإذن الله
- إن شاء الله.

ثم قامت والدتها باحتضانها والمباركة لها، وأكدت لها على نصائح "حورية" وأهميتها، وعمت الفرحة والسعادة في أرجاء المنزل الحزين حتى لو لدقائق معدودة بين كل المتواجدين، ثم بدأ "ياسين" في اختيار اسم المولود إن كان بنتًا أو ولدًا ضاحكًا:

- أولًا: ألف مليون مبروك لكِ ولابني "سيف الدين" الذي سوف أصبح جدًا بسببه، ثانيًا: إن جاءت بنتًا فاسمها يافا، وهذا أمر، وإن كان ولدًا لكم حرية اختيار اسمه.

- بالتأكيد هذه حفيدتك ولك حرية الاختيار، وإن كان أبيها غائب فأنت محله الآن
- سوف يعود قريبًا بإذن الله، ليسعد معنا
- بإذن الله يا والدي

فاتجه نحوها وقبَّل رأسها وقال:

- بعد كل موقف لـ "سيف الدين" وبعد كل اختيار أيقن أني صنعتُ رجلًا عظيمًا، فيا رب أعده لي سالمًا غانمًا بلا أي مكروه

فردد كل المتواجدين بالغرفة:

- آمين

وبعد الانتهاء من الأجواء الاحتفالية، تحول المنزل في بضع دقائق من أجواء احتفالية وسعادة إلى حزن وبكاء بعد انتهاء "أحمد" من تحضير أغراضه وبدأ في توديع الجميع ورحل.

* * *

تألق "ليث" بتدريبات الفريق الأول مما أجبر المدرب على وضعه في التشكيل الأساسي للمباراة القادمة برغم صغر سنه، فالكل متشوق ليرى الفتى ال فلسطيني ذو السابعة عشر ربيعًا في أول ظهور رسمي له مع الفريق الأول.

حاله من الارتباك والقلق تسيطر على "ليث"، الجماهير تملؤ ملعب المباراة وأصواتهم تهز أرجاء الإستاد والمعظم قادم لمشاهدة الفتى الفلسطيني صغير السن كبير الموهبة الذي قطع مسافات طويلة من أجل عشقه لكرة القدم، قدميه ترتعش رهبة وقلبه يخفق بقوة، نصائح أبيه تترد في أذنيه باستمرار، يتخيل فرحة أسرته بنجاحه وتمنى تواجدهم بجانبه في هذه اللحظة.

انتهى من قراءة الفاتحة وبدأت المباراة، يتضح فرق السن بينه وبين زملائه بالفريق ولاعبين الخصم؛ بسبب البنية الجسدية وقصر بنيانه ونحافته، في البداية كان يشعر بعدم قدرة أقدامه على الوقوف أو الجري ومرر أكثر من تمريرة خاطئة، وحاول المرور بالمهارة ولكن باءت محاولاته بالفشل، فبدأت تصيح الجماهير بسببه، وطالبت بتبديله حتى انتهى الشوط الأول بتأخر فريقه بهدفين مقابل لا شيء.

عند دخوله غرفة تبديل الملابس للاستراحة بين شوطيَ المباراة وجد كابتن "صبري" بانتظاره ينظر إليه ولا يتحدث، فوضع "ليث" وجهه بالأرض خجلًا من المستوى الرديء الذي قدمه وعدم القيام بأي من نصائحه، فوضع "صبري" يده على كتف "ليث" وابتسم ثم قال:

- لا تحزن، هذا المستوى بسبب القلق الذي يسيطر عليك، أنت أفضل لاعبي الفريقين
- لا أشعر بقدمي، وغير قادر على التفكير بالكرة، لا أدري ماذا حدث لي بعد نزولي أرض الملعب، أصوات الجماهير أصابتني بالشلل المؤقت تقريبًا.

- اغلق أذنيك ولا تفكر بالجماهير تمامًا، ركز في كرة القدم فقط، اترك كل المشاكل والأحزان والأفكار على باب هذه الغرفة، واستمتع باللعب واجعلهم يشاهدون كرة القدم الفلسطينية

أغلق "ليث" عينيه وبدأ في تجميع قواه ثم قال:

- حسنًا، سوف أستمتع وأمتع الجماهير وأريهم اللعب الفلسطيني

فقام كابتن "صبري" بالشد من أزره وتحميسه، وعند بداية الشوط الثاني بدأ "ليث" في تنفيذ نصائح كابتن "صبري"، والتعليمات الفنية لمدرب الفريق، وعند استلامه الكرة قام بمراوغة ثلاثة لاعبين، ثم مرر تمريرة طويلة لمهاجم الفريق الذي سجَّل هدفًا تقليص الفارق لهدف واحد، واستمرت أحداث الشوط الثاني بنفس الوتيرة باستحواذ "ليث" وزملائه على الكرة لكن دون إحراز أهداف حتى آخر هجمة بالمباراة، قام "ليث" بتبادل التمريرات بينه وبين زملائه حتى اقترب من مرمى الخصم وسدد تسديدة قوية معلنة عن هدف التعادل لفريقه، لينتهي اللقاء بالتعادل الإيجابي، لتستمر الجماهير بالهتاف لـ"ليث"، وتحولت السخرية إلى تشجيع وانبهار بالفتى صغير السن والحجم، كبير الموهبة.

* * *

أصوات أرجل تقترب من الزنزانة في منتصف الليل، مازال "سيف الدين" و"عائشة" مقيدين بالسلاسل الحديدية، ضعف واضح في أجسادهم من سوء التغذية والتعذيب، نظرت " عائشة" لـ "سيف الدين" وأشارت له بحاجبيها باتجاه الباب، فأغمض عينيه ووضع وجهه بالأرض، وبدءا في

تحضير أنفسهم لحفلة تعذيب واغتصاب وذل جديدة، وعندما تم فتح الباب وتم إضاءة الزنزانة بواسطة لمبة جاز يحملها كوهين المتواجد بمفرده لأول مرة منذ اعتقالهم، كان دائمًا يتواجد مع اليهود الأجانب للترجمة فقط دون المشاركة في التعذيب فنظر "سيف الدين" له بنظرات احتقار وغضب عارمة وقال بصوت منهك للغاية:

- أحقر منك لم ترَ قط عيني، تتواجد منذ شهور في فرحي، وتنكر ما يفعله اليهود وتؤكد على هويتك الفلسطينية والعربية، والآن تقوم بمساعدتهم على احتلالنا واغتصاب نسائنا أمام أعيننا، لولا هذه القيود لكنت قطعت لحمك إربًا إربًا

ثم بصق على وجهه ووضع وجهه بالأرض ثانيةً

- أقدِّر حجم الألم الذي بداخلك، ولكن هناك ظروف وضعتني هنا، لا تنسَ أنني يهودي قبل أن أكون فلسطينيًا أو عربيًا، ثانيًا: الدولارات هنا لا حصر لها، أأختار ديني والمال والحياة الجيدة؟ أم حياة المعتقلات والتعذيب والاغتصاب والذل مثلك؟ على العموم أنا هنا الآن لمساعدتك للهرب من المعتقل، ليس لأنك فلسطيني مسلم، ولكن بسبب والدك الرجل الطيب فقط .

بصق "سيف الدين" على وجهه ثانيةً، فقام كوهين بإزالة البصقة عن وجهه وكتم بداخله الغضب، وبدأ في فك قيودهم وأعطى لكل منهم زيًّا عسكريًا يهوديًا ليرتديه على جسده العاري، وأمرهم بأن يسيروا خلفه ويقوموا بتنفيذ الأوامر دون نقص أو زيادة، مروا من الباب الأول وهو باب الزنازين دون أن

يعترض طريقهم أحد، ثم ذهبوا لجراج السيارات الخاص بالسجن ليستفلوا سيارة يقودها كوهين وبجواره "سيف الدين" ومن خلفه "عائشة." نظرات "سيف الدين" تشير إلى استعداده وتجهيزه للقيام بشيء لا يعلمه أحد سواه، عينه زائغة تترقب كل الجنود الواقفة أمامه، وعند الوصول إلى باب الخروج سحب السلاح الخاص بكوهين وقام بالنزول من السيارة وبدأ في إطلاق النار على جميع الجنود الواقفة أمامه، فأسقط ثمانية جنود، قبل أن يأتي وابلًا من الرصاص من الخلف، فسقط "سيف الدين" أرضًا، بينما كسر كوهين الحاجز بالسيارة وفر هاربًا هو و" عائشة" خارج السجن.

ذهبت "أميرة" إلى الطبيب لمتابعة الحمل برفقة " فيروز" ووالدتها، بينما ذهب "ياسين" وعم " أمين" للبحث عن وظائف في أي مكان بقطاع غزة، وتجلس "حورية" بالمنزل برفقة صغيرتها "صبا"، تجلس بالشرفة بصحبة قهوتها المميزة وأمامها "صبا" لتصفف شعرها.

فقالت "صبا" بصوتها الرفيع وحروفها التي لم تكتمل بعد:

- كم أشتاق لـ"سيف الدين" و"ليث" يا أمي، أشتاق ليوم الجمعة وذهابنا إلى المسجد الأقصى، لابد وأن تعود هذه الأيام وأن تنتهي الحرب، نحن لا نريد شيئًا، فقط العيش في سلام، هل كثير علينا هذا؟

فقامت "حورية" باحتضانها وابتسمت ابتسامة تخفي كثيرًا من معاني الألم ثم قالت:

- الحمد لله على كل شيء، ولكن سيأتي اليوم الذي نجتمع فيه من جديد، ونذهب إلى المسجد الأقصى يوم الجمعة، ليس كثيرًا، ولكن هذه هي

الحياة، يتكالب الجميع لأجل المال والمصالح حتى لو على حساب الضعيف، حسبي الله ونعم الوكيل في اليهود وكل من عاونهم.

فنظرت إليها "صبا" ثم دفنت رأسها بين صدر أمها وقامت باحتضانها بقوة، قبل أن تفاجئهم أصوات قوية بالسماء، وعندما نظرت "حورية" وجدت طائرات حربية تقوم بقصف المنازل، يسقط المنزل تلو الآخر مثلما تهدم "صبا" البيوت الرملية على الشاطئ، هنا أيقنت "حورية" الخطر وأنها قد تفارق الحياة في هذه اللحظة، فقامت باحتضان ابنتها أكثر فأكثر ورددت الشهادة بصوت عالٍ لترددها بعدها "صبا"، حتى قصف المنزل وتحولتا إلى أشلاء بشرية مخلوطة بحطام المنزل.

بعد انتهاء القصف وعودة "ياسين" وعم "أمين" إلى مكان المنزل، عندما رأى "ياسين" المنزل تحول إلى حطام وأشلاء، سقط على ركبتيه وظل ينظر إليه وتنزرف الدموع من عينيه من حيث لا يعلم، فهنا كانت شريكة حياته، أم أولاده، الشيء المبهج الوحيد بهذه الحياة، ذهبت وتركته وحيدًا هي وملاكه الصغير، وبعد فترة من الصمت ظل يردد:

- حسبي الله ونعم الوكيل، حسبي الله ونعم الوكيل، حسبي الله ونعم الوكيل، إنا لله وإنا إليه راجعون، اللعنة على إسرائيل ومن عاونها

* * *

(٧)

عائد الكابتن "صبري" إلى المنزل بعد يوم طويل من العمل بالنادي مع الناشئين، وعند صعوده للدرج كانت "دنيا" التي تسكن بالشقة المجاورة ذاهبة للتسوق، كانت امرأة جميلة وذكية ومتعلمة رغم ندرة التعليم للفتيات في ذلك الوقت، بشرتها سمراء، عيناها تميل إلى اللون الرمادي، شعرها ناعمًا كالحرير، عمرها يتعدى الثلاثين، مطلقة وليس لديها أطفال .

ومن أول نظرة لها، شعر "صبري" بشعور جيد تجاهها لا يعلم إن كان إعجابًا أو حبًا، ولكن يعلم أنها تبادله نفس الشعور من نظراتها ومن بعض المناقشات الصغيرة التي كانت تدور بينهما.

نظر إليها وقال بابتسامة وقليل من الارتباك:

- كيف حالكِ ؟!
- الحمد لله وأنت ؟
- الحمد لله، إلى أين تذهبين ؟
- إلى السوق لشراء بعض الأغراض، هل تريد شيئًا أجلبه لك ؟

فكر سريعًا وأحس أن هذه هي الفرصة المناسبة للحديث معها بشكل أكبر، فقال لها بابتسامة:

- أنا ذاهب أيضا للسوق، هل تسمحين لي أن آتي معك ؟
- بالتأكيد، هيا بنا.

اتجها نحو السوق سيرًا على الأقدام، التوتر والارتباك يتملكان منهما قليلًا، فبدأ "صبري" الحديث محاولًا فض روح الارتباك قائلًا:

- هل تمانعين أن نتبادل الحديث خلال طريقنا للسوق ؟
- بالتأكيد لا أمانع
- حسنًا، دعينا نلعب لعبة الأسئلة، أطرح عليكِ سؤالًا وأنتِ تطرحين عليَ سؤالًا

نظرت إليه وبضحكة مصطنعة قائلة:

- من الممكن أن تطرح السؤال الذي يدور برأسك، دون حجة لعبة الأسئلة تلك كانت تملك القدر الكافي من الذكاء الذي يؤهلها لفهم الشخص الذي أمامها دون أن يتحدث.

وضع يده اليمنى على رأسه، ونظر إلى الأعلى بشكل كوميدي وابتسم قائلاً:

- يبدو أنني لم أقدِّر حجم ذكائك، آسف، أطرح سؤالي الآن ؟
- لا داعي للأسف، تفضل.
- امرأة جميلة وذكية ومتعلمة مثلك لماذا لم يكتمل مشروع زواجها، ولماذا لم تتزوجي ثانيةً ؟

ابتسمت ابتسامة تخفي الكثير بداخلها، ثم تحولت ملامحها البشوشة الباسمة إلى ملامح حزينة إلى حدٍ ما، ثم قالت:

- بسبب تعليمي وذكائي وأفكاري التي لا تتناسب مع أحد
- وماذا عن تفاصيل الموضوع ؟

- زوجي كان يعشق التحكم، وظن أني مثل قطعة الأثاث الفارهة التي بمنزله، يعشق السب والضرب ويكره المناقشة لأنه كان دائمًا ينهزم بها، لم أتحمل ذلك وطلبت منه الطلاق ووافق، والحمد لله أني لم أنجب منه أطفالًا حتى لا يربطني به أي شيء.

نظر إليها وبروح الفكاهة التي بداخله وقال:

- ليس كل الرجال مثله، يوجد رجال جيدون

ثم أشار على نفسه وأخذا يضحكان بصوت عالٍ ملفت للنظر.

وبعد وصولهم إلى السوق وشرائهم بعض الخضروات والفاكهة واللحوم، وفي طريق العودة إلى المنزل قامت بدعوته للغداء معها هي وأسرتها بالغد هو و"ليث" أيضًا، فوافق على دعوتها.

ثم ذهب كل منهم إلى شقته، وكلاهما بداخله ملايين من الأسئلة والمشاعر الغريبة تجاه الآخر

* * *

فرملة سيارة بصوت قوي وسط الصحراء، ليحاوط السيارة غبارًا كثيفًا يمنع الرؤية ثم قال كوهين وهو في منتهى الغضب والانفعال:

- ماذا فعل هذا المختل؟ قضى على حياتي وحياة أطفالي، أنا المخطئ منذ البداية لمحاولتي مساعدة مجموعة من الرجعيين المتخلفين .

ثم لكم عائشة لكمة قوية أدت لفقدانها الوعي، ثم ألقى بها من باب السيارة وغادر وحيدًا.

* * *

سكن "ياسين" وعم " أمين" ووالد "أحمد" بإحدى الخيم بعد انتقالهم إلى مخيم دير البلح بغزة بعد قصف منزلهم، وبالخيمة المجاورة كانت النساء " فيروز" و"أميرة" ووالدتها ووالدة "أحمد"، كانت حياة المخيمات في غاية الصعوبة، في النهار الشمس كادت تحرقهم من شدة الحرارة وفي الليل الهواء شديد جدًا بسبب الخلاء الذي يحاوطهم، ويوجد حمام واحد فقط في وسط المخيم يستخدمه حوالي عشرون ألف لاجئ فلسطيني.

اشتد المرض على "ياسين" الأيام الماضية بعد وفاة زوجته وابنته، أصبح رفيق الفراش يتحرك بصعوبة بالغة، وبجانبه دائمًا عم " أمين" والثلاث نساء .

نظر "ياسين" إلى عم " أمين" وبصوت متهدج يكسوه المرض والإرهاق والحزن قال:

- أريد أن أرسل خطابًا لـ "ليث" للمجيء والعودة إلى فلسطين، أريد أن أراه قبل أن أفارق الحياة؛ فالموت قريب مني جدًا، أريد أن أضمَّه بين أضلعي وأن أوصيه وصية لابد أن يعلمها.
- -لا تقل ذلك، إن شاء الله سوف تتحسن الظروف والأحوال، ثق بربك، ولكني سوف أحضر لك قلمًا وورقة لكتابة ما تريد، وسوف أرسله إلى أقرب مكتب بريد يعمل في ظل هذه الحرب.

ابتسم "ياسين" وقال:

- شكرًا لك كثيرًا يا "أمين"
- لا شكر على واجب، أنت أخي، لست مجرد صديق أو جار أو حتى معرفة عمل.
- يعلم الله مدى حبي لك يا أخي

فقام عم " أمين" باحتضانه، وأهداه قبلة على جبينه وذهب ليحضر الورقة والقلم.

وعند عودته بالورقة والقلم بدأ "ياسين" بإملائه مضمون الخطاب.

"إلى ابني العزيز "ليث"، أشتاق إليك كثيرًا وأتمنى أن أراك قريبًا بفلسطين، الأيام السابقة حدثت بها أشياء كثيرة مؤلمة، منها مقتل شقيقتك ووالدتك على أيدي الصهاينة ولم أعثر لهم على جثة بعد تناثر أشلائهم مع حطام المنزل، ومنها اعتقال شقيقك "سيف الدين" الذي لا أعلم إذا كان ما زال حيًا أم أنه مجتمع مع والدتك و"صبا" الآن، أخفيتُ عليك كل هذه الأحداث المريرة بقدر المستطاع ولكن لم أستطع فعل ذلك ثانيةً، خاصةً بعد انتقالي للعيش بإحدى المخيمات، كما اشتد عليَّ المرض وأصبحت رفيق الفراش، لم يبقَ لي أحد سواك وأريد أن أكمل أيامي القليلة القادمة معك، كما أريد أن أخبرك بوصيتي، أحبك كثيرًا، بانتظارك، من أبيك "ياسين."

من مخيم دير البلح بغزة - إلى مصر - القاهرة - حي السيدة زينب

نظر إليه عم " أمين" وعيناه بها الكثير من الدموع والحزن وقال:

- سوف أذهب لإرسال الخطاب، برغم رؤيتي بمرارة وصعوبة محتواه على "ليث"؛ فهو ما زال صغيرًا ليتحمل كل هذه الصدمات مرة واحدة.
- يجب أن يعلم الحقيقة كاملة، وصعوبة الموقف حتى يأتي.
- حسنًا، سوف أذهب لإرساله ثم أعود لك سريعًا
- بانتظارك حتى تعدَّ لي كوبًا من الشاي

فابتسم عم " أمين" وهز رأسه ورحل .

سفرة ضخمة تحتوي على كل ما لذ وطاب من الطعام في انتظار "صبري" و"ليث"، تجلس "دنيا" بجوار كل من والدها ووالدتها .

ترتدي فستانًا أسود أنيقًا رائحة العطر تفوق رائحة الطعام الزكية، وجهها يبدو عليه السعادة، يدل لوالدها ووالدتها بأن تلك الزيارة أكبر من جار قادم للغداء فقط لتتأنق "دنيا" كل هذا التأنق وتحضر كل هذه الأنواع من الطعام.

دق جرس الباب فأسرعت "دنيا" إلى المرآة لتنظر إلى مظهرها، ثم اتجهت سريعًا إلى الباب فوجدت كابتن "صبري" في منتهى التأنق، يرتدي بدلة سوداء وجزمة كلاسيكية بها لمعة خفيفة، ويحمل باقة كبيرة جدًا من الزهور الحمراء، وبجواره "ليث" يرتدي ملابس التدريب.

فظل ينظر بعينيها وهي تنظر بعينيه لمدة ثوانٍ دون أن يتكلم أحدهم، قبل أن يقطع "ليث" أجمل لحظة رومانسية كان كلاهما في أشد الاحتياج لها قائلًا:

- سننتظر على الباب كثيرًا ؟

فخجلت "دنيا" كثيرًا واحمر وجهها قليلًا وقالت:

- بالتأكيد لا، أهلًا بكم

فجلس كل من "صبري" و"ليث" على السفرة بجانب بعضهما، وجلست "دنيا" أمام "صبري" وبجوارها كل من والدها ووالدتها، فبدأت والدة "دنيا" الحديث بفكاهة وسخرية قائلة:

- "دنيا" هي من أحضرت كل هذا الطعام بمفردها، فأنا غير مسؤولة عن أي حالات تسمم تحدث

فضحك "صبري" وقال:

- ألذ طعام تذوقته بحياتي والآن علمتُ سر لذاذته

فنظرت له والدة "دنيا" وقامت بعقد حاجبيها وتحريك فمها سريعًا بشكل جانبي ثم نظرت إلى الأرضِ، بينما خلقت "دنيا" حديثًا آخر للتغطية على أفعال والدتها فقالت:

- لدي خمس تذاكر لحفلة الست أم كلثوم الأسبوع المقبل بالإسكندرية، سأذهب أنا وأمي وأبي، من الممكن أن تأتي معنا أنت و"ليث "

فرد "ليث" سريعًا:

- أي يوم؟ فأنا لدي آخر مباراة بالموسم الأربعاء المقبل، ثم بعد ذلك ستبدأ فترة راحة سلبية من التدريبات
- الحفلة الخميس، إذًا سوف تأتون معنا

فقال "ليث" بكثير من الجدية والحماس:

- إن شاء الله، ماذا عنك يا كابتن؟
- أنا أيضًا لدي أجازه الخميس المقبل، من الممكن أن نذهب معكم؛ فأنا من أحلامي حضور حفلة للست، كما أني أشتاق للإسكندرية وبحرها

فابتسمت "دنيا" وقالت:

- اتفقنا.

وبعد انتهائهم من تناول الطعام، جلسوا بالصالة لتناول بعض من المشروبات الساخنة، والمناقشة في بعض الأمور السياسية التي تخص فلسطين، كما أوضح والد "دنيا" استياءه الشديد مما يحدث في فلسطين خلال الفترة الأخيرة.

كما تحولت المناقشة لرياضية كروية، خاصةً وأن والد "دنيا" مشجع متعصب للنادي الذي يلعب له "ليث" فوجَّه حديثه إلى "ليث" قائلًا:

- عليكم أن تحققوا الفوز في آخر مباراة بالدوري لحسم اللقب، وعدم الانتظار لمباراة فاصلة
- إن شاء الله، الفريق يتدرب بكل ما أوتيَ من قوة، نحتاج فقط توفيق الله وسوف نسعدكم

- إن شاء الله يكون التوفيق حليفكم

وبعد مرور بعض الوقت وفي ظل هذا الجو الأسري الدافئ، شرد "ليث" بتفكيره وتذكر أسرته وتجمعهم بالمسجد الأقصى يوم الجمعة، تذكر لهوه مع "صبا" وترتيل وحفظ القرآن مع أبيه، تذكر لعب كرة القدم مع "سيف الدين" وأصدقائه، وتذكر أنه لا تصله أي أخبار عنهم منذ أكثر من شهرين، فأحس بثقل قوي على صدره، وبدأت دموعه في خيانته، فوقف واتجه نحو الباب مسرعًا، ثم إلى منزلهم ومن خلفه كابتن "صبري" لهدأته ومعرفة سبب خروجه بهذا الشكل.

* * *

كتيبة من الجيش العربي تمر من الصحراء الفلسطينية لتختبئ بعد بوادر الهزيمة المؤلمة التي لحقت بالجيش العربي، وأثناء المرور وجدوا سيدة ترتدي زيًّا الجيش الصهيوني ملقاة على الأرض فاقدة للوعي، وتنزف دمًا من فمها، فاتجه كل الجنود نحوها سريعًا وبدأ كل منهم بإبداء رأيه، منهم من قال:

- صهيونية علينا أخذها أسيرة
- إذا كانت لم تمت من الأساس

وبعد الاقتراب أكثر فأكثر صرخ أحدهم قائلًا:

- هذه عائشة، فلسطينية أسيرة بسجون العدو، وأم خطيبتي

فنظر الجميع له باستغراب، قبل أن يؤكد عليهم ثانيةً

- أقسم لكم هذه فلسطينية وليست صهيونية

وبدأ بشرح القصة من البداية حتى استوعب كل الجنود الموقف وبدأوا في إسعافها

أول شيء رأته " عائشة" بعد إفاقتها هو وجه "أحمد" الشاحب، ثم بدأت في النهوض من على الأرض لتستوعب ما يحدث، أين هي؟ وماذا حدث؟ آخر شيء تتذكره هو كوهين عندما لكمها وأطاح بها من السيارة وفقدت الوعي، جلست أرضًا ثم وضعت يدها اليمنى على وجه "أحمد" ونطقت اسمه بدهشة وحيرة، يبدو عليه الإرهاق والعجز، وقدمه اليمنى مبتورة ويستند على عكاز بيده اليمنى، ثم بدأت في سؤاله عما حدث طوال الفترة الماضية وماذا حدث له؟

بدأ "أحمد" في شرح كل الأحداث من البداية، بعدما تم اعتقالها هي و"سيف الدين" وانضمامه للجيش العربي والحرب وبوادر الهزيمة وساقه التي فقدها في الحرب، وبعد انتهائه من شرح كل ما حدث اتفقا على ذهابهم إلى المنزل بغزة معًا

بعد ذلك نظر لها "أحمد" ثانيةً وقال:

- أين "سيف الدين"؟ هل مازال رهن الاعتقال؟

لم تجبه " عائشة" وظلت صامته قبل أن يعاود "أحمد" السؤال ثانيةً بنبرة قلقة:

- أين "سيف الدين"؟

فأجابت " عائشة" هذه المرة والدموع تنزرف من عينيها:

- "سيف الدين" قُتِل

هنا سقط "أحمد" على الأرض لم يشعر بأطرافه، ثم وضع مقبضيه أرضًا وبينهم وجهه، وبدأ في البكاء بحرقة، بدأ يردد عبارات غير مسموعة بسبب صوت بكائه القوي إلا واحدة فقط وهي

- لن أترك حقك يا أخي

قامت " عائشة" باحتضانه ومشاركته البكاء، قبل أن يبدأ أصدقائه الجنود في التدخل ومحاولة تهدئتهم التي باءت بالفشل في البداية، ثم نجحت جزئيًا في إيقاف بركان البكاء، ولكن لم يستطيعوا إيقاف بركان الغضب الثائر بداخلهم

ثم قام الجنود بإيصال "أحمد" و" عائشة" إلى أقرب مكان يوجد به سيارات لتنقلهم إلى غزة، وعادوا لأرض المعركة بانتظار بعض التعليمات من القادة بدون "أحمد" مبتور القدم، الذي أصبح غير قادر على التواجد بأرض المعركة.

* * *

ماذا تفعل الآن يا كوهين؟ هل لم يروني وأنا أقود السيارة؟ هل أعود للمعسكر ثانيةً؟ سوف أعود، لن أفرط في كل هذه الدولارات بسهولة، وحتى لو علموا بأني من قمت بذلك لن يفعلوا شيئًا بكل تأكيد، سيتفهمون موقفي؛ فنحن أصحاب ديانة وعرق واحد.

وعند عودة كوهين إلى السجن الذي كان يعمل به، استقبله قائده استقبالًا جيدًا، فشعر كوهين بالراحة قليلًا، وأيقن عدم علم أحد أنه من فعل ذلك.

قبل أن يطلبه القائد بمكتبه الخاص وعندما حضر، قال القائد له:

- هل تعلم شيئًا عن عملية تهريب المسجون الذي قتل ثمانية يهود؟

فرد كوهين في قلق واضح:

- لا أعلم شيئًا تمامًا عن هذا الموضوع
- لماذا اختفيت إذًا منذ هذه الواقعة حتى الآن؟
- كنتُ أنجز بعض الأشياء لأسرتي في ذلك الوقت، من الممكن أن تسألهم.

فضحك القائد كثيرًا وقال:

- نعلم أنك من قمت بهذه العملية، مازال بداخلك عربي متخلف، اليوم آخر يوم لك هنا، وآخر يوم لك بهذه الحياة.

فقام القائد بإخراج مسدسه من درج المكتب وقام بتصويب ثلاث رصاصات استقرت بقلب كوهين، ثم أمر جنوده بحرق جثته.

* * *

قام "ليث" بتحضير أمتعته في سعادة بالغة، بعد تحقيقه أول بطولة له مع الفريق الأول، كما أصبح معشوق الجماهير والفتى المدلل بالنادي، كما أنه ذاهب للإسكندر وبحرها الذي قام بزيارته مرة واحدة عندما كانت

لديه مباراة هناك، كما أنه سوف يشاهد أم كلثوم على الحقيقة لأول مرة في حياته.

انطلقت السيارة التي يقودها والد "دنيا" وبجانبه كابتن "صبري" وبالخلف "ليث" و"دنيا" ووالدتها.

كانت هناك لجنة مرورية بالطريق، أدت إلى تكدس السيارات.

وعند معرفة والد "دنيا" بوجود لجنه بدأت ملامح وجهه بالتغيُر وظهور علامات القلق والارتباك، ولاحظ كابتن "صبري" ذلك فبدأ بسؤاله قائلًا:

- هل هناك شيء مخالف بالسيارة؟

فنظر إليه وقام بهز رأسه بارتباك، فاستدار كابتن صبري له وقال:

- ما المخالف؟ ليس لديك رخصة قيادة؟

فأجابه والد "دنيا" بهز رأسه نافيًا، فقال "صبري" بعصبية وانفعال:

- ما المخالف إذًا؟

فأجابه هذه المرة قائلًا:

- -حقيبة السيارة مليئة بمنشورات تحريضية ضد الملك، وإذا تم تفتيش السيارة سنذهب جميعًا إلى المعتقل

فاستشاط "صبري" غيظًا وزاد انفعاله وبدأ في تعنيف والد "دنيا" بالكلام، وأحس أن حياته على وشك الانتهاء في بلاد غير بلاده وموضوع ليس له دخل به.

هنا تدخل "ليث" بالموضوع قائلًا:

- لا داعي للقلق، أنا من سوف أقوم بحل هذه المشكلة

فنظر إليه كابتن "صبري" وتنهد تنهيدة ممزوجة بضحكة بها سخرية وأدار وجهه إلى النافذة، وعند وصولهم إلى مكان التفتيش، فتح "ليث" باب السيارة واتجه نحو الضابط، وعندما رآه الضابط قال اسمه بصوت عالٍ:

- كابتن "ليث"، أشكرك على بطولة الدوري يا كابتن.

فقام "ليث" بمصافحته وتحدثا قليلًا جانبًا ثم أمر الضابط مساعديه بفتح الطريق لسيارة الكابتن "ليث" دون تفتيشها، وبعد المرور أمر كابتن "صبري" والد "دنيا" بالوقوف جانبًا، ثم قال له منفعلًا:

- لماذا لم تخبرني؟ ومن أنت؟ وماذا تفعل هذه المنشورات بسيارتك

فأشار له بالهدوء ثم قال:

- لو أخبرتك فلن تأتي معي، وهذه لجنة مفاجئة يبدوا أنهم لديهم إخبارية بوجود شيء ممرر بالطريق، وأنا عضو بتنظيم سياسي سري لا يريد الملك الخائن.

- لماذا تقوم بنقل المنشورات من القاهرة إلى الإسكندرية؟ هل الإسكندرية
لا يوجد بها مطابع؟
- الإسكندرية يوجد بها الكثير من المطابع، ولكن بسبب صغر مساحتها هناك تضييق أمني ضخم على كل المطابع، ويتم غلق أي مطبعة تقوم بطبع منشورات ضد الملك علاوةً على اعتقال صاحبها، وأنا من كلفت بنقلها إلى هناك، أي سؤال آخر أم لم ينتهِ التحقيق.

فنظر له كابتن "صبري" بغضب وركل السيارة، وانتظر لحظات، ثم عاد إلى مقعده ووجه وجهه نحو النافذة دون أن ينظر له تمامًا طوال الطريق .

وعندما عاد والد "دنيا" للسيارة نظر لـ "ليث" بالمرآة وقال له بابتسامة قوية:

- شكرًا لك من هنا للسنة القادمة، يا جالب الحظ والسعادة، ليلة أمس بطولة الدوري، واليوم إنقاذي من الاعتقال

فاعتدل "ليث" بجلسته، ورفع رأسه لأعلى وقال مازحًا:

- لا داعي للشكر والتصفيق، فذلك أقل شيء لدي

فقام كل من في السيارة بالضحك ما عدا كابتن صبري الذي ظل صامتًا تمامًا، ثم انطلقوا لاستكمال الطريق.

* * *

رجل يرتدي بدلة قماشية ذات لون رمادي، يقف أسفل منزل "صبري" و"ليث" وينادي بأعلى صوت لديه:

- "صبري عبدالفتاح عريشة"، لديك جواب من فلسطين

فلم يجبه أحد، فظل ينادي بطبقة صوت أعلى فأعلى حتى خرج له عم "سونة" من البقالة، فنظر إليه وقال:

- ماذا تريد ؟! ما الشيء المهم الذي يجعلك تنادي بأعلى صوت لديك ؟!
- لدي جواب من فلسطين، لـ "صبري عبد الفتاح عريشة ."
- هذا لا يستدعي كل هذا الصوت العالي

فنظر إليه الرجل وابتسم قائلًا:

- نعم يستدعي، هذا الرجل عندما كان يراني في أي وقت كان يأتي إليَّ متلهفًا ويسأل إذا كان لديه جواب من فلسطين أم لا، وفي آخر مرة وعدني بمبلغ جيد إذا أُرسل إليه جواب من فلسطين، وها هو، وها أنا أريد المبلغ.

فسحب عم "سونة" من يده الخطاب، ووضعه أسفل جلبابه، ونظر إليه وابتسم بمكر وقال:

- وهو غير موجود، وعندما يأتي سوف أعطيه الخطاب بنفسي، شكرًا لك

فتغيرت ملامح ساعي البريد وقال:

- أعطني الخطاب وسوف آتي إليه عندما يعود

- لا، هو غير موجود بالقاهرة؛ فهو بالإسكندرية وسوف يأتي بعد أسبوع على الأقل، وبالتأكيد لن ينسى اتفاقه معك عندما يرى الخطاب، وسوف ينفذ وعده في أي وقت.

فقام ساعي البريد بالتمتمة بكلمات غير مفهومة وصوت منخفض في غضب، بينما عاد عم "سونة" إلى البقالة ووضع الخطاب بأحد الأدراج واستكمل عمله.

* * *

وصل "أحمد" برفقة " عائشة" إلى مخيم دير البلح بغزة، بعدما ذهبا إلى مكان المنزل المحطم ولم يجدا المنزل ولم يجدا أحدًا، فروى لهما أحد الأشخاص بالحي ما حدث ودلهم على مكان تواجدهم .

وبعد ساعة من البحث المتواصل داخل المخيم وجدا أخيرًا الخيمة المتواجد بها "ياسين"، كان يجلس وحيدًا، بينما الآخرون مجتمعون بالخيمة المجاورة بجانب "أميرة" التي تضع مولودها الأول من "سيف الدين."

فاستقبلهم "ياسين" بفرحة عارمة انطفأت عندما رأى قدم "أحمد" المبتورة، وبدأ "ياسين" في السؤال عما حدث لهما في الأيام الماضية، فبدأ "أحمد" برواية الأحداث التي حدثت له بالحرب وتبشيرهم بهزيمة محزنة للجيش العربي قريبًا، وبعد ذلك نظر "ياسين" إلى "عائشة" وبدأ بالسؤال عما حدث لها، والسؤال عن "سيف الدين" وأين مكان تواجده الآن.

فنظرت له "عائشة" بعينين تلمع من بعض الدموع المحبوسة، وحاولت تغيير الموضوع بالسؤال عن " فيروز" وباقي الناجين من لعنة الحرب فوجه "ياسين" وجهه لأعلى وأغلق عينيه وقال:

- "سيف الدين" استشهد؟

فلم تجبه " عائشة" وبدأت في البكاء فتأكد "ياسين" من الشعور الذي كان يراوده دائمًا وقال:

- إنا لله وإنا إليه راجعون، الحمد لله، نحسبه عند الله شهيدًا إن شاء الله، لا تبكِ يا "عائشة"؛ فهو في مكان أفضل الآن.

بعد ذلك دلهم على مكان تواجد الناجين بالخيمة المجاورة بسبب وضع "أميرة" لمولدها.

عند دخولهم من باب الخيمة بدأت الزغاريد تتوالى من " فيروز" ووالدة "أميرة" لوضع "أميرة" لطفلين ولد وبنت توأم، وزادت الزغاريد عندما رأوا "أحمد" و" عائشة" أمامهم ناجين.

فانطلقت " فيروز" مسرعة لترمي نفسها بأحضان " عائشة"، بعد طول مدة الفراق التي طالت لمده تسعة أشهر تقريبًا، وبعد ذلك ذهبت إلى "أحمد" وبدأت في الحديث معه عما حدث له وعن قدمه المبتورة، وبدأت في التهوين عليه لتشعره بأنها لن تتخلى عنه مهما حدث.

بينما أخذ " أمين" الطفلين وذهب لـ "ياسين" ليطمأنه على "أميرة" وعلى أبناء ابنه "سيف الدين"، فتفاجأ "ياسين" بتواجد توأم ولد وبنت، فأعطاهم له " أمين" فنظر لهم وابتسم ثم نظر إلى " أمين" وقال:

- هكذا هي الدنيا، تبكيك وتغلق كل الأبواب أمامك، وبعدها بدقائق تسعدك وتفتح أبوابها لك، لغز محير هذه الحياة
- الحمد لله يا أبو سيف، وإن شاء الله يدوم الله عليك السعادة والأبواب المفتوحة.
- إن شاء الله .

ثم نظر "ياسين" للأطفال ثانيةً وقال:

- هذه يافا، وهذا "سيف الدين" الصغير.

ثم قبَّل كل طفل على رأسه وأعطاهم لـ "عم أمين" ليعود بهما ثانيةً إلى "أميرة" التي لم يخبرها أحد بوفاة زوجها "سيف الدين" حتى الآن مراعاة للظروف التي تمر بها من ولادة، وأخبروها بأنه ما زال معتقلًا .

* * *

بعد وصول "ليث" و"صبري" وأسرة "دنيا" إلى الإسكندرية ذهبوا لإحدى الفنادق ليقوموا بتغيير ملابسهم وارتداء الملابس الكلاسيكية للحفلة المنتظرة التي ستبدأ بعد خمس ساعات من موعد وصولهم، ماعدا والد "دنيا" الذي لم يفارق السيارة بعد إيصالهم وذهب لتوصيل المنشورات التي يحملها بسيارته.

وعند وصوله للكيلو (٢١) بطريق مصر الإسكندرية وهو المكان المتفق عليه لتسليم المنشورات، وقف بجانب الطريق فلم يجد أحدًا، فأشعل سيجارته الأجنبية المفتخرة وبدأ في تدخينها، حتى أتت سيارة نقل بها شخصان، أحدهما يتحدث بلكنة صعيدية، والآخر بلكنة أهل مدن القناة، يبدو عليهم القوة والخشونة في التعامل.

بدأ الصعيدي بالتحدث قائلًا:

- أين الأسلحة ؟
- في السيارة من الخلف، متى موعد تنفيذ العملية ؟
- هذه معلومات سرية .

ثم ذهب الرجلان إلى سيارة والد "دنيا" وبدوا في حمل الأسلحة وتخزينها بسيارتهم، وعندما انتهوا من تخزين الأسلحة، وصلت قوات من الشرطة المصرية فبدأوا في تبادل إطلاق الأعيرة النارية، فقُتل ثلاث رجال من الشرطة، وقُتِل الرجلان، بينما قام والد "دنيا" بتسليم نفسه وذهبوا به إلى مقر القلم السياسي ليبدأوا معه التحقيقات.

(٨)

باقٍ من الوقت عشر دقائق ويبدأ الحفل ولم يصل والد "دنيا" حتى الآن إلى مقر إقامة الحفل، بينما يقف "صبري" يدخن سيجارته ليتلاشى ملل الانتظار، قبل أن تأتي له "دنيا" لتتحدث معه قائلة:

- لماذا تقف وحيدًا هنا؟
- انتظر والدك فقد تأخر، الحفل على وشك البداية
- ممكن ألا يأتي، فعلها كثيرًا، هيا بنا إلى الداخل.

فأطفأ "صبري" سيجارته وعاد معها إلى الحفل.

جلست "دنيا" بجانب والدتها وبجوارها "صبري" في انتظار صعود الست لخشبة المسرح.

وعند صعود الست أم كلثوم لخشبة المسرح، وقف كل الحاضرين واشتعل المكان بالتصفيق الحار حتى بدأت الست في غناء أول أغاني الحفلة، فبدأ الناس بالجلوس والهدوء للاستمتاع بكوكب الشرق.

وفي منتصف الأغنية، عند مقطع (نرجس عيونك يلاغيني فيه الرضا للي تألم ياريت يا روحي تهنيني وتشفي قلبي اللي تكلم)

بدأ "صبري" بالنظر في عيون "دنيا" وترديد كلمات الأغنية مع الست في سعادة وحب، وعلى الجانب الآخر خجلت "دنيا" كثيرًا واحمرت وجنتيها

قبل أن يفاجئها "صبري" بوضع يده على يديها، مما جعلها تنظر له بوعيد وسحبت يديها وأشارت بحاجبيها على والدتها التي كانت تجلس بجوارها.

وعلى الجانب الآخر كان "ليث" في أعلى درجات استمتاعه بالنظر لوجه الست أم كلثوم، التي كان يستمع لها كثيرًا في طفولته بفلسطين بسبب حب والده لها، وكان حلمًا من أحلام والده أن يحضر حفلة لها، ولكن لم يحالفه الحظ في ذلك.

وبعد الانتهاء من الحفل والعودة للفندق، قاموا بتناول وجبة العشاء ولم يحضر والد "دنيا" أيضًا، فبدأ القلق يسيطر على "دنيا" ووالدتها، لاحظ "صبري" ذلك القلق فنظر لـ "دنيا" وقال:

- ماذا بكِ؟
- أبي تأخر كثيرًا على غير المعتاد، أحيانًا كان لا يأتي في موعده، لكن ليس لكل ذلك الوقت
- لا تقلقي، سيصل قريبًا إن شاء الله

وبعد مرور ثلاث ساعات أخرى من الانتظار ولم يعد، بدأ القلق يتحول إلى انهيار، فحاول "صبري" أن يسيطر على الموقف وعلى والدة "دنيا" و"دنيا" ولكن لم يستطع في البداية حتى قال:

- سوف أبحث عنه ولن أعود إلا به بإذن الله، عليكم الهدوء الآن

فسحبت "دنيا" شنطة يدها من على المقعد وقالت :

- لن أتركك، سوف أذهب معك

رفض "صبري" في البداية، ولكن وافق بعد ذلك، بسبب إلحاح وتصميم "دنيا" على الذهاب معه، فأعطى "ليث" أوامر بمساعدة والدة "دنيا" في أي شيء تريده، ورحل هو و"دنيا" في رحلة البحث عن والدها.

* * *

طلب "أحمد" من " فيروز" أن يتحدثا على انفراد، وبالفعل لبَّت " فيروز" طلبه وخرجوا سويًا ليلًا ليتحدثوا بعيدًا عن الناس والمخيم.

بدأ "أحمد" الحديث قائلًا:

- لا يوجد كلام يعبر عن مدى اشتياقي لكِ.

فابتسمت " فيروز" وقالت:

- أقسم لك وأنا أيضًا اشتقت إليك كثيرًا، كانت تمر الليالي بمنتهى الصعوبة وأنا لا أعلم عنك شيئًا، وكنت أدعو الله في كل صلاة أن تعود لي سالمًا، أرجوك لا تتركني ثانيةً.

ابتسم وسحب يدها اليمنى وقبَّلها وقال:

- كُتِب علينا القتال والدفاع عن هذا الوطن، ولذلك أريدك في موضوع مصيري لي ولكِ.

فنظرت له باندهاش وقالت:

- ما هو؟

- أريد أن نتزوج غدًا.

فنظرت له بذات النظرة وقالت:

- لا تشعر بالعجلة في ذلك القرار.
- لا، لا أشعر، الكلية ولم تعد موجودة، ولن نكمل تعليمنا، ومن الممكن أن نموت في أي لحظة في تلك الحرب، وأنا أريد أن أستشهد وأنتِ زوجتي حتى يجمعني الله بكِ في جنته.

فوضعت وجهها أرضًا وقالت:

- لكن أنا كنتُ أفكر بالذهاب لمصر للدراسة، ولا أفكر بالزواج في ذلك التوقيت.

فترك يدها وتحول وجهه من الابتسام والبشاشة، إلى العبوس وبضحكة بها ألم وحزن قال:

- هل اتخذتِ هذا القرار من وقت طويل ؟ أم عندما رأيتِ قدمي ؟
- هل تعلم عني ذلك ؟ أريد أن أعود للمخيم
- أعتذر، لم أقصد ذلك، لكن كل ما أريده الآن هو أنتِ وفقط.
- من الممكن أن نسافر إلى مصر معًا للدراسة ونتزوج.

فقال "أحمد" سريعًا بدون تردد:

- لا، لن أترك وطني، سوف أشارك في تحريره حتى لو بقدم واحدة.
- علينا أن نعطي أنفسنا مهلة للتفكير قبل اتخاذ أي قرار .

فهز "أحمد" رأسه موافقةً على كلام " فيروز" وقال:

- حسنًا، أمامنا أسبوع للتفكير، وبعد ذلك يجب علينا أن نتخذ قرارًا.

فقالت " فيروز" بابتسامة:

- اتفقنا، لا أحب أن أراك حزينًا هكذا، ابتسم، لن أتركك في جميع الأحوال.

فابتسم "أحمد"، وضم " فيروز" بين أحضانه، ليمشوا معًا على إحدى شواطئ غزة تحت أضواء النجوم.

* * *

غرفة احتجاز سرية تحت الأرض بمقر القلم السياسي المصري بالإسكندرية، محتجز بها عبد السميع حسين والد "دنيا" وحيدًا،

قبل أن يدخل أحد الضباط المصريين لبدء التحقيق معه.

رجل طويل ذو هيبة، شعره خليط بين اللون الأبيض والأسود، يرتدي زيًّا ملكيًا.

كان يدخن سيجارته الأجنبية المفتخرة ثم بدأ كلامه قائلًا:

- هل تريد سيجارة يا عبد السميع؟
- لا شكرًا، لكن من أين علمت اسمي؟

فضحك الضابط ضحكة بصوت عالٍ، ثم أخذ نفسًا آخر من سيجارته قبل أن يستكمل حديثه قائلًا:

- نحن نعلم كل شيء عنك وعن عائلتك، تسكن بحي السيدة زينب، متزوج وابنتك اسمها "دنيا"، فتاة ثلاثينية مثقفة جميلة مطلقة لديها أنوثة طاغية، وعساكر القلم السياسي يقدِّرون المطلقات ويعشقوهم.
- أعتبر هذا تهديدًا ؟

فضحك الضابط مرة أخرى وقال:

- نعم، تهديد

فازداد عبد السميع عندًا وقال:

- وأنا لا أُهدد، ولا أخشى غير الله فقط

فضحك الضابط أكثر وأكثر، وأخذ آخر نفس من سيجارته قبل أن يطفئها في جسد عبد السميع وقال:

- أنصت لي جيدًا يا عبد السميع، أنت رجل عجوز ولن تتحمل يومًا واحدًا هنا، ولا أسرتك ستتحمل ما سيحدث لها هنا أمامك.

فقال بصوت عالٍ ومتألم:

- ماذا تريدون مني الآن ؟
- أنت متهم بقتل ثلاثة عساكر مصريين، غير حمل أسلحة غير مرخصة، ومحاولة قتل الملك وقلب نظام الحكم، من الممكن اعتبارك شاهد

ملك في هذه القضية وتعود لمنزلك على قدميك، إذا اعترفت على باقي أعضاء تنظيمك السري برؤسائه.

فوضع عبد السميع وجهه بين يديه ولم يجب بشيء فقال الضابط ثانيةً:

- سوف أعطيك مهلة للتفكير، سأعود لك بعد ساعة من الآن لمعرفة اختيارك، هل الحل السلمي أو العنف؟ وفي الاختيارين ستعترف.

ففتح الضابط باب الحجز وخرج، فقام عبد السميع بالنداء عليه فعاد الضابط وعلى وجهه علامات السعادة التي تدل على الانتصار وقال :

- ماذا؟
- أريد أن اتحدث معك قليلًا
- كلي آذان صاغية لك يا عبد السميع
- أريد سيجارة قبل أن اتحدث

فوضع الضابط يده في جيبه وأعطاه السيجارة، فشكره عبد السميع وأشعل سيجارته ليأخذ منها نفسًا طويلًا، ثم بدأ في الاعتراف على باقي التنظيم وأماكن الاجتماعات وعمليات الاغتيال المقبلة لأشهر وأكبر الشخصيات بالحكومة المصرية.

فأخذ الضابط يدوّن كل ذلك، ثم نظر إليه وقال:

-وفيت بوعدك معي، وأنا سوف أوفي بوعدي معك ولن يأتي اسمك في هذه القضية، سوف أطلق سراحك بعد القبض على هؤلاء الخونة، أشكرك على حسن تعاونك معنا يا أستاذ عبد السميع .

فاكتفى عبد السميع بهز رأسه في حزن على ما فعل، ورحل الضابط، وظل عبد السميع يؤنبه ضميره على ما فعل بالاعتراف على زملائه، لكن لم يكن لديه خيار آخر للحفاظ على زوجته وابنته.

* * *

بعد أسبوع من البحث المتواصل في أقسام شرطة ومستشفيات الإسكندرية من "صبري" و"دنيا"، لم يجدوا أي أثر لعبد السميع، فقدوا الأمل في إيجاده، وظلا جالسين بالفندق بقلة حيلتهم، وتحولت الإجازة من خروج وشواطئ وحب ورومانسية إلى حزن وفقدان الأب، واحتمال كبير في موته.

قاموا بتحضير الحقائب والاستعداد للعودة للقاهرة دون عبد السميع المفقود، وفي هذه اللحظة حدث ما كان لا يتوقعه أحد منهم.

والد "دنيا" يقف على باب الفندق، ملابسه متسخة، رائحته كريهة، يبدو عليه الإرهاق وبعض آثار التعذيب، أمن الفندق منعه من الدخول بسبب هيئته، فاشتبك معهم وعلت أصواتهم مما جعل الناس تنتبه لهم، فذهب "صبري" و"دنيا" لاكتشاف ما يحدث، فوجدا عبد السميع في هذه الحالة السيئة.

فاحتضنته "دنيا" وبدأ "صبري" في التحدث مع الأمن وشرح الموقف، فوافق الأمن على دخوله معهم ولكن على مسؤوليتهم الشخصية.

فبدأ "صبري" بالتحدث معه والاستفسار عما حدث له طوال هذه الفترة الماضية، ولكن لم ينطق عبد السميع بأي حرف تمامًا وظل صامتًا.

قبل أن يطلب منهم الذهاب للاستحمام وتغيير ملابسه بعد ذلك سوف يروي لهم ما حدث له في الفترة الماضية.

بعد انتهائه من الاستحمام وتغيير ملابسه، بدأ "صبري" في سؤاله ثانيةً قائلًا:

- ماذا حدث لك؟ وأين كنت طوال الفترة الماضية؟ بحثنا عنك في كل أقسام الشرطة والمستشفيات ولم نجد لك أي أثر

فتنهد عبد السميع تنهيدة إرهاق ثم قال:

- تم القبض عليَّ وأنا أسلم المنشورات، وأُجبرت على الاعتراف على زملائي في التنظيم حتى أحافظ عليكم وعلى نفسي.
- الحمد لله على سلامتك يا عمي، وبمناسبة عودتك، والفرحة التي عادت لنا، أريد أن أطلب منك أن توافق على زواجي من "دنيا" وتحديد ميعاد الفرح الآن.

فنظر له والد "دنيا" بدهشة وحيرة ثم قال:

- هل ترى أن ذلك الوقت مناسب لطلب شيء كهذا؟

فلم يرد "صبري" عليه هذه المرة وتولت الأمر "دنيا" قائلة:

- أبي أنا موافقة، ونحن اتفقنا على كل شيء، فلا داعي للانتظار، لا أحد منا يضمن عمره لساعة قادمة، دعنا نفعل ما نريد.

بعصبية وانفعال قال عبد السميع:

- لماذا تريدون موافقتي إذًا؟ اتفقتما على كل شيء، تزوجوا أيضًا دون تدخلي تمامًا إذًا.

فردت "دنيا" ثانيةً محاولة منها على شرح الأمر أكثر من ذلك قائلة:

- لا نقصد تهميشك بكل تأكيد، وإن كنا لا يهمنا موافقتك فكنا لن نخبرك الآن، كنا تزوجنا وحدنا، وإن كنت غير موافق فلن نتزوج

فقام "صبري" بالنظر لها بشدة وغضب بسبب قولها فلن نتزوج، فقامت بغمزه والإشارة له بالانتظار.

فقام والدها باحتضانها وقال:

- دائمًا ما تقومين بهزيمتي في أي مناقشة، على كلٍ مبروك لكما، وأنا موافق على زواجكم وقت ما تريدون

فقام "صبري" بالابتسام قائلًا:

- الخميس بعد القادم هو الموعد الذي اتفقنا عليه أنا و"دنيا."

فقال والد "دنيا":

- وأنا موافق أيضًا، مبروك لكما.

فعم الفرح بين كل المتواجدين ماعدا "ليث" الذي كان قلق من ذلك الزواج الذي بكل تأكيد سيطرح به خارج المنزل وخارج حياة كابتن "صبري" كلها.

* * *

(٩)

انتهت الحرب بهزيمة العرب، وسيطرة العصابات اليهودية على أجزاء كبيرة جدًا من الأراضي الفلسطينية بمساعدة الولايات المتحدة الأمريكية وإنجلترا، وأصبحت الضفة الغربية تحت السيطرة العسكرية الأردنية، وأصبحت غزة تحت السيطرة والحماية العسكرية المصرية.

وقعت تلك الأخبار كالصاعقة على "ليث"، شعر بأن حياته تنهار شيئًا فشيئًا، "صبري" زواجه غدًا ولابد من إيجاد منزل قريب من النادي في أسرع وقت ممكن، ليعيش به وحيدًا، بلده قد احتلت رسميًا وأصبحت ممزقة، لا يعلم شيئًا عن أهله منذ أكثر من تسعة أشهر، لا يعلم ماذا يفعل هل عليه أن يستمر على ما هو فيه، أم عليه أن يعود إلى وطنه وأهله ثانيةً، للاطمئنان عليهم.

كل ذلك يدور برأس "ليث" وهو فوق سطح منزلهم، مستلقٍ على الأرض، يضع يده تحت رأسه، يضع قدم على قدم، وسارح بالنجوم يفكر ويفكر.

قبل أن يقطع "صبري" خلوته قائلًا:

- هل تسمح لي بالجلوس معك قليلًا في ذلك الجو الجميل؟

فابتسم "ليث" وقال:

- بكل تأكيد

فأستلقى "صبري" مثل "ليث"، ووضع يده تحت رأسه، ووضع قدم على قدم، ونظر للنجوم وقال:

- أريد أن أتحدث معك قليلًا، حول موضوع المنزل أولا ثم حول عدة مواضيع أخرى
- دعنا ننظر إلى هذا الجمال دون أن نتحدث، لا أريد من أحد يهون على ما أنا فيه

فقام "صبري" من تمديدته وفي عصبية وغضب قال:

- لماذا تتحدث معي بهذه الطريقة؟ ستغمرك السعادة لو لم أتزوج؟ تذكر أنى من جلبتك لهنا وجعلت منك لاعب كرة قدم مشهور، وبعد كل ذلك تعاملني بهذه الطريقة السيئة؟

لم يتحرك ساكنًا لـ "ليث"، فقط نظر إليه لمدة ثوانٍ ثم صوب نظره إلى السماء ثانيةً قائلًا:

- أنا أتحدث معك جيدًا وباحترام كما علمني والدي، وأنا لم اقل إنني ضد زواجك من الأساس، كنت سأصبح سعيدًا أكثر لو كنتُ الآن بين عائلتي، لا أريد الشهرة ولا كرة القدم، ولا أريدك أنت أيضًا .

ثم وقف وبكل سرعته أخذ يركض على سلم المنزل ومن خلفه كابتن "صبري" الذي لم يستطع إيقافه، وظل يشاهده من أمام باب المنزل وهو يختفي في ظلام الليل.

قبل أن يفاجئه صوت عم "سونة" البقال قائلًا:

- لماذا يركض كابتن "ليث" هكذا، قمتُ بالنداء عليه بأعلى صوت ولكنه لم يجب.

فنظر له "صبري" بعصبية قائلًا:

- ماذا تريد يا عم "سونة" الآن؟
- ساعي البريد أعطاني هذا الخطاب يوم سفركم وقال انه من فلسطين

فقال "صبري" بنبرة صوت عالية منفعلة :

- نحن هنا منذ أكثر من أسبوعين لم تتذكر ذلك الخطاب إلا الآن؟ لم يصل لنا أخبار من فلسطين منذ أكثر من تسعة أشهر، وبالتأكيد به أخبار وأشياء مهمة يا رجل يا غبي.
- وضعتُه في الدرج حتى أحافظ عليه ولم أكن أعلم أنه بهذه الأهمية، خيرًا تفعل شرًا ترى، هكذا هي الدنيا .

فنظر له "صبري" شذرًا ثم وضع الخطاب في جيب البنطال وعاد إلى شقته ليقرأ ما به .

* * *

بعد انتهاء الحرب وسيطرة اليهود على جزء كبير من الأراضي الفلسطينية، أيقن كل المتواجدين بالمخيمات أن هذه الحياة ستطول، بما فيهم "أحمد" وأسرته والمتواجدين معه، لذلك بدأ في البحث عن عمل هو ووالده "غسان" وعم " أمين ."

وبعد مدة قصيرة وجدوا عملًا صغيرًا ولكنه يفي بالغرض، ويدر عليهم بعض الأموال التي تساعد في المأكل والمشرب، بما أن زراعة الزيتون واستخراج الزيت منه من أهم الزراعات وأكثرها انتشارًا بفلسطين، فالعمل كان حصد محاصيل الزيتون بإحدى المزارع بغزة.

كان "أحمد" مثال يحتذى به بين زملائه في المزرعة، فبرغم قدمه المبتورة كان أكثرهم اجتهادًا ونشاطًا، مما جعل صاحب المزرعة أن يقوم برفع قيمة راتبه في فترة قصيرة جدًا، وأصبح من العمال المهمين بالمزرعة.

وفي إحدى ليالي العمل ذهبت " عائشة" إلى "أحمد" بالمزرعة، وطلبت منه الحديث على انفراد فجلسا تحت ظل شجرة، وبدأ "أحمد" في تحضير كوب من الشاي الفلسطيني بالمرمرية على الحطب .

ثم بدأت " عائشة" الحديث قائلة:

- أردت الحديث معك على انفراد بعيد عن المخيم والناس

فصب "أحمد" الشاي في الفناجين وابتسم وقال:

- يبدو أنه شيء مهم

فرشفت " عائشة" رشفة من فنجان الشاي ثم قالت:

- الشاي لذيذ للغاية
- بالشفاء على قلبك يا "عائشة"

فنظرت له وابتسمت وقالت:

- نعم شيء مهم، هل تحب "فيروز"؟

فنظر لها ثم حك ذقنه وقال:

- هل جعلتيني أترك العمل لهذا السؤال فقط ؟!
- جاوب على سؤالي وستفهم كل شيء الآن
- نعم أعشقها، فهي من تعطيني أملًا في هذه الحياة بعد "سيف الدين" رحمه الله، معها أشعر أني قريب من الله ومن الجنة، أعشقها بكل ما تحمله الكلمة من معنى
- جيد جدًا، وبالتأكيد لن يقف أحد أمام أحلام من يحب

فبدأ الشك يتسرب لقلبه، وبدأ يدرك ما تريد التحدث عنه "عائشة"، فسند ظهره على جزع الشجرة وقال:

- تحدثي بصراحة وشفافية أكثر من ذلك.

فبدأت " عائشة" بترتيب الكلام بداخلها قبل أن تنطق به ثم قالت:

- "فيروز" تريد أن تذهب لمصر بغرض الدراسة، و في ذات الوقت تريدك بجانبها، فعليك أن تختار، إما أن تتزوجها وتذهب معها إلى مصر، أو تتركها تذهب بمفردها لتحقق حلمها وما تريد
- هي من أرسلتك لي حتى تبلغيني بهذه الخيارات؟
- "فيروز" لا تعلم شيئًا عن تواجدي هنا

فهز "أحمد" رأسه ثم قال:

- حسنًا، أفضِّل أن تبلِّغني هي بذلك

فهزت " عائشة" رأسها وقالت:

- أنت شخص عنيد للغاية مثلها، على كلٍ سوف أترككم تفعلون ما تريدون، ولكن طلب شخصي لا تقف أمام حلمها واجعلها تذهب إلى مصر سواء معك أو بمفردها .

فابتسم ونظر لها وقال:

- أعتقد أن أنا وهي سوف نختار القرار المناسب لي ولها، وسوف نبلغك به في الوقت المناسب.

فاستشاطت غيظًا وضربته على يده وقالت:

- أنا مخطئة في التدخل بينكما من البداية.

ثم وقفت ورحلت، وظل "أحمد" يضحك كثيرًا دون أن يعترض طريقها.

* * *

ظل "ليث" يتنقل من شارع إلى شارع ومن حارة إلى حارة، لا يعلم إلى أين يذهب في ذلك التوقيت، ليس لديه أصدقاء ليذهب إليهم في أي وقت كما كان يفعل في فلسطين، جميع زملائه بالفريق أو بالمدرسة لا تتخطى علاقتهم نطاق الزمالة.

فقرر الذهاب لأكثر مكان شعر به براحة منذ مجيئه إلى مصر، ضفاف نهر النيل، ولكن لم تكن تلك الزيارة مثل الزيارة الأولى، لم يشعر بتلك الخصوصية التي كان يتمتع بها قبل بزوغ نجمه كلاعب كرة قدم، كل المتواجدين يريدون إمضاء الأوتوغرافات ولا مانع من الجلوس مع النجم قليلًا، ليعود للتنقل بين شوارع وسط القاهرة الهادئة في ذلك التوقيت المتأخر، وظل هكذا حتى سمع أذان الفجر، فذهب ليصلي ويدعو الله بفك الكرب .

وبعد الانتهاء من الصلاة بدأ بعض الناس في الذهاب لمصافحته قبل أن يرحلوا بسبب شهرته القوية التي حققها في الفترة الأخيرة، ظل الوضع هكذا حتى رحل جميع من في المسجد، لم يبقَ سواه هو وإمام المسجد الذي ينتظر رحيله حتى يقوم بغلق أبواب المسجد ويخلد للنوم.

بدأ إمام المسجد في النظر لساعته ثم ينظر لـ "ليث"، و"ليث" يتجاهل نظراته وينظر إلى الأرض.

ظل إمام المسجد هكذا لمدة ربع ساعة حتى نفذ صبره، وذهب ليتحدث معه قائلًا:

- السلام عليك يا بني

فرد "ليث" السلام، وبدأ يفكر في أن يطلب منه البقاء بالمسجد لصلاة الظهر ثم يرحل، قبل أن يقاطع الإمام تفكيره قائلا:

- أنا أحبك كثيرًا، فأنت لاعبي المفضل، أنا مثل والدك، هل لديك مشكلة؟

فابتسم "ليث" هنا وشعر بالراحة، بالتأكيد هذا الرجل لن يرفض طلبه فقال بإحراج:

- بالفعل لدي مشكلة، وأنت القادر على حلها .

فنظر إليه الإمام وقال بوجه مبتسم بشوش:

- الله وحده القادر على حل أي مشكلة، نحن أسباب فقط، ما الذي أقدر على تقديمه لك؟
- أريد أن أرتاح قليلًا في المسجد هنا حتى صلاة الظهر

فضحك الإمام ثم قال:

- أضعت كل ذلك الوقت بسبب خجلك من هذا الطلب البسيط، هذا بيت الله، وأنت عبد من عباده فتأتي إلى هنا وقت ما تريد.
- شكرًا جزيلًا لك
- لا تشكرني، فاشكر الله واحمده على نعمته عليك.

فاكتفى "ليث" بهز رأسه مع ابتسامة خفيفة، بينما ذهب الإمام ليحضر له وسادة ليضع عليها رأسه أثناء نومه عندما عاد الإمام وأعطاه الوسادة قال:

- أنا في هذه الغرفة إن أردت شيئًا

فابتسم "ليث" وقال:

- شكرًا لك ثانيةً

فاكتفى الإمام بابتسامة ورحل، وترك "ليث" شاردًا مع همومه وأفكاره.

* * *

يجلس "أحمد" على أحد شواطئ غزة يتغزل في البحرِ ليلًا، في انتظار " فيروز" وقرارها المصيري، ظل يتحدث مع نفسه كعادته.

ماذا سأفعل إن قررت " فيروز" الذهاب إلى مصر؟ هل سأرضخ لقرارها وأذهب معها؟ أم يزداد إصراري على عدم ترك فلسطين؟

هل أرحل وأترك حقي وحق صديقي وحق آلاف الفلسطينيين؟! هل أرحل وأخون وطني وأرضي من أجلها؟!

يا الله أرح قلبي واهدني للقرار الصحيح لي ولها.

أسئلة كثيرة بداخله لا يوجد لها إجابة ظلت تشغل تفكيره، حتى أتت " فيروز" لتضع يديها على عينيه وتقول:

- من أنا؟!

فضحك "أحمد" وقال:

- عبد الغفور زميلي بالمزرعة

فضربته على ظهره وجلست بجواره وقالت:

- هل هذا الصوت الملائكي يشبه صوت عبد الغفور؟

فضحك "أحمد" كثيرًا هذه المرة ثم قبَّل يدها وقال:

- أعشق ثقتك القوية بذاتك، صوت ملائكي، ألا تشعرين بأن ذلك مبالغ فيه؟

فاستشاطت غيظًا ووقفت استعدادًا للرحيل، فجذبها "أحمد" من يدها بقوة لتعود لجلستها بجانبه ثانيةً وقال:

- أمزح معكِ، صوتكِ مثل صوت هذا الطائر .

وأشار لها على عصفور كناريا يقف بعيدًا فاكتفت بالابتسامة قبل أن تقول.

- هل اتخذت قرارًا بشأن ما تحدثنا به من قبل ؟
- لا، أشعر بأنني لن أستطيع اتخاذ قرار في ذلك الموضوع، لماذا أخير بين أرضي وبين حبيبتي وزوجتي بإذن الله؟ أنا أعشقك وأنتِ تعلمين ذلك جيدًا، ولكني أعشق فلسطين أيضًا، أُريدكم أنتم الاثنين
- وأنا أيضًا في نفس ذات الحيرة، عليَّ أن أختار ما بينك أنت وحلمي.
- أنتِ أيضًا لم تتخذي قرارًا حتى الآن؟
- لا، اتخذتُ قرارًا رغم الحيرة وصعوبة الاختيار

وفي هذه اللحظة شنت قوات الكيان الصهيوني غارة عسكرية على غزة برغم انتهاء الحرب وإعلان الهدنة، فبدأ الناس يهرولون من الخوف للبحث عن مكان للاختباء به، ومن بينهم "أحمد" و" فيروز" التي أصيبت بشظية في رقبتها، ففقدت الوعي على أثرها.

فحملها "أحمد" على كتفيه بيد واحدة، واليد الأخرى كان يستند بها على عكازه، حتى وصل إلى إحدى المخابئ.

فالمخبأ كان عبارة عن قبو أحد المنازل به أسلحة وبعض أدوات الإسعافات الأولية، ومصابين يقوم المتواجدون بإسعافهم.

فصرخ "أحمد" في المختصون لإسعاف الحالات الحرجة، وبالفعل استجاب له أحد المتواجدين لينظر للجرح والإصابة ويقول:

- الشظية تعمقت ويجب إزالتها، وهنا لا يوجد أطباء، فكل المتواجدين مسعفون فقط، لابد أن تذهب إلى المشفى المجاور، وهناك يوجد أطباء وغرف عمليات مجهزة.

فلم يتحدث "أحمد"، حمل " فيروز" ثانيةً، وقرر أن يعرّض حياته للخطر بخروجه إلى الشارع مقابل أن ينقذ حياة " فيروز"، قبل أن يشير له الرجل على باب خلفي يجعله أمام باب المشفى.

فدخل إلى المشفى وقاموا بإدخال " فيروز" إلى غرفة العمليات مباشرةً، بينما جلس "أحمد" على الأرض يضع يده على رأسه ويدعى الله ألا يفقدها مثل ما فقد صديق عمره.

* * *

صلى "ليث" الظهر بالمسجد، ثم ذهب إلى النادي ليطلب من مدير الفريق مساعدته في استئجار شقة، فاليوم عرس كابتن "صبري" وبالتأكيد لن يصبح له مكان هناك ثانيةً .

جالس بالكافتيريا الخاصة بالنادي في انتظار وصول مدير الفريق، سارح في بحر همومه، قبل أن يفاجئه صوت يقول:

- السلام عليكم

عندما نظر "ليث" له، وجد الكابتن "صبري"، فأشار له بالجلوس وقال:

- عليكم السلام

فقال الكابتن "صبري" بجدية:

- أريد أن أتحدث معك بموضوع في غاية الأهمية، موضوع أكبر من زواجي ووجودك هنا وأكبر من أي شيء يدور برأسك.
- أنا أيضًا أريد أن أتحدث معك بموضوع مهم.
- بالتأكيد ليس أهم من موضوعي

فبدأ "صبري" في تمهيد تلك الأحداث الكارثية التي بالخطاب؛ حتى لا يصدم "ليث" مرةً واحدة قائلًا:

- هل تعلم مدى أجر المقتول دفاعًا عن أرضه؟ هل تعلم أنه شهيد؟ حيًا يُرزق عند ربه قبل أن أقول لك أي شيء، أريد منك أن تكون قويًا صلب لا تجعل الأحزان تهزمك.

أيقن "ليث" بعد هذه المقدمة، أن فردًا من أفراد أسرته قد قُتِل في الحرب، فنظر لكابتن "صبري" وقال:

- "سيف الدين" قُتِل بالحرب ؟

فبدأ كابتن "صبري" في إخراج الخطاب من جيبه، وأعطاه لـ "ليث" دون أن يتحدث.

فأخذ "ليث" منه الخطاب وبدأ يقرأ ما فيه وبدأت الدموع تنزرف من عينيه، عند معرفته بمقتل والدته وشقيقته، واعتقال أخيه ومرض أبيه، وبعد انتهائه من قراءة الخطاب نظر إلى "صبري" وقال في انهيار من البكاء:

- كم أنا أناني ومستهتر، ولا أحب غير ذاتي، لماذا تركت أهلي ؟! من أجل كرة القدم أم من أجل الشهرة ؟! سوف أعود إلى فلسطين اليوم وليس غدًا.

فقام "صبري" باحتضانه وقال:

- لا تقسُ على نفسك، فأنت لم تكن تعلم بأن كل ذلك سوف يحدث، وفكر جيدًا قبل قرار عودتك إلى فلسطين مجددًا.

فقام "ليث" بإبعاده عنه وقال:

- أفكر في ماذا؟ أمي وأختي قد قتلوا، وأخي معتقل وأبي مريض، وأنت تقول لي فكِّر؟ هل معنى ذلك أنك لن تأتي معي ؟

فقال "صبري" بلسان متلعثم:

- أنت تعلم كم مر من الوقت وأنا أبحث عن الحب، وحين أجده أتركه وأعود معك إلى الحرب والموت ؟ لن أعود ولن أترك عرسي وحياتي التي أسستها هنا.

فأخذ "ليث" يضحك ضحكات متتالية ثم قال:

- أبي حذرني منك ومن كرة القدم، ولكن لم أنصت له، والأيام تظهر لي أنه كان دائمًا على حق، على العموم سوف أذهب إلى المنزل لتحضير أغراضي، سوف أسافر اليوم

-كما تريد، إن أردت البقاء سوف أستأجر لك الغرفة التي فوق سطح المنزل، وإن أردت الرحيل فلن أقف أمام اختيارك

ضحك "ليث" ضحكة سخرية وقال:

- لا يستطيع أحد أن يقف أمام اختياري

ثم ترك كابتن "صبري" جالس وحيدًا وذهب لتحضير أغراضه للرحيل.

* * *

(١٠)

بعد مرور أكثر من ساعتين خرج الطبيب من غرفة العمليات، اتجه "أحمد" نحوه سريعًا وقال بمزيج من الخوف والقلق:

- هل كل شيء على ما يرام يا دكتور؟

فنظر له الطبيب ثم ربت على كتفه وقال:

- الشظية تعمقت في مكان خطير، لقد قمنا باللازم، ولكن الحالة غير مستقرة بسبب فقدانها دماء كثيرة ولا يوجد بالمشفى ما يكفي من دماء لتعويض ما فقدته، عليك الآن بالدعاء لها
- ممكن أن أتبرع لها أنا بكل دمائي إن أردت.
- دماؤها من فصيلة نادرة، لا أعتقد أنك من نفس الفصيلة، ولكن اذهب لسحب عينة لمعرفة فصيلتك .

فهز "أحمد" رأسه قائلًا :

- شكرًا لك يا دكتور

وبعد سحب منه العينة وُجِد أن فصيلته مطابقة لفصيلة دماء " فيروز"، فطلب من الطبيب أن يقوم بأخذ ما يريد منه من دماء ونقلها إليها.

وبعد أن تم نقل الدماء إليها ذهب إلى غرفتها، ومع أول نظرة لها شعر بألم نفسي لم يشعر به من قبل، يشعر أنه سوف يفقدها في خلال دقائق أو

ساعات على أقصى تقدير. وجدها تشبه الجثث، وجهها شاحب، تتنفس بصعوبة بالغة، نائمة لا يتحرك لها ساكنًا. فسحب أحد المقاعد ووضعه بجانبها وظل ينظر لها في البداية، ثم وضع يده على يدها اليسرى وبدأ يتحدث معها قائلًا:

- "فيروز"، لا تتركيني مثل "سيف الدين"، لا تنسي العهد الذي بيننا باستكمال ما تبقى من عمرنا معًا، فوالله الذي لا إله إلا هو لن أترك حقك أنتِ وأخي، ولكني بحاجة لكِ بجانبي لاستجلاب ذلك الحق، فأنتِ مصدر قوتي بهذه الحياة، أنتِ عيني التي أبصر بها، وقلبي الذي يدق ليعيش، لن تتركيني بكل تأكيد، أجبينني.

ثم قبَّل يدها ووضعها على وجهه وبدأ يبكي، حتى حدث ما كان لا يتوقعه بدأت أصابع " فيروز" تتحرك ببطء شديد، فوقف وقال:

- "فيروز"، هل تشعرين بي ؟!

فلم يتحرك لها ساكنًا، فأخذ ينادي عليها ثانيةً قائلًا:

- "فيروز" إن كنتِ تشعرين بي حركي رأسك قليلًا ؟

فقامت " فيروز" بتحريك رأسها ناحية اليمين، فابتسم "أحمد" بشدة وقال:

- الحمد والشكر لك يا الله، ألف سلامة عليكِ يا قرة عيني

ثم أخذ الممر ركضًا باتجاه الطبيب ليخبره باستفاقتها، فعاد معه الطبيب ليكشف عليها ويطمئن "أحمد" أكثر من ذلك، وبعد انتهائه من الكشف قال الطبيب مبتسمًا:

- ستفيق بين حين والآخر إن شاء الله، وإن مرت الساعات القادمة بدون أي مستجدات ستصبح على ما يرام بإذن الله، وستعود معك إلى المنزل.

فابتسم "أحمد" وقال:

- شكرًا لك يا دكتور، يا رب إن شاء الله

ثم عاد إلى جلسته السابقة، وبدأ يتحدث معها ثانيةً بعد معرفته بأنها تنصت إليه، وبدأ يذكرها بالذكريات الجميلة التي تجمعهم وبأول مرة رآها بها، وظل هكذا لمدة ساعة كاملة حتى بدأت " فيروز" تفتح عينيها للحياة من جديد، وبدأت تشير له بأشياء لا يفهمها، فبدأت تتحدث بصوت خافت غير مسموع قائلة:

- أعتذر لك عن تشبثي بالسفر والحياة، وإرادتي بتركك هنا وحيدًا.
- لا تتحدثي، أنتِ في غاية المرض، أهم شيء الآن لدي هو أن تعودي لي سالمة مثل ما كنتِ

فأشارت له بأحد أصابعها بلا وابتسمت وقالت:

- أنا سوف أفارق الحياة قريبًا، لا تضع أملًا في استمراري هنا معكم، أشعر بروحي تخرج من جسدي
- لا تقولي ذلك، لن تفارقيني، هكذا كان وعدكِ لي

فأشارت له بالانتظار ثم قالت بصوت متعب للغاية:

- لا تترك أمي وحيدة، واعتنِ بها مثل والدتك تمامًا، وهون عليها فراقي، وقل لها أن ابنتها الوحيدة استشهدت وسوف تشفع لها يوم القيامة.
- لا تقولي ذلك، سوف تعودين إليها، لن أخرج من هذا المشفى إلا بكِ، ولا تتحدثي ثانيةً حتى لا يزداد عليكِ الألم

فزادت قوة العناق بين أصابع يديهما، ونظرت له بحب وقالت:

- أحبك

فقال والدموع في عينيه:

- وأنا أيضًا، لا تتحدثي ثانيةً، انتهي لن أجيبك تمامًا إن تحدثتِ.

فابتسمت له ورفعت إصبع السبابة بيدها اليمنى وبدأت في التشهد، وبعد مرور خمس دقائق شعر "أحمد" بيد " فيروز" اليسرى تترك يده التي كانت متشبثة بها، ووقف الشهيق والزفير فأخذ يردد بأعلى صوت:

- "فيروز"، " فيروز"، تحدثي معي، فيروز

ولكن لم تجبهِ تلك المرة، فركض إلى الطبيب وعاد به إلى الغرفة، فقام الطبيب بالكشف عليها ثم تغطية وجهها وقال:

- إنا لله وإنا إليه راجعون.

ورحل، بينما سقط "أحمد" على الأرض غير مدرك ما يحدث، ينظر فقط أمامه وتتساقط الدموع من عينيه دون أي حديث.

* * *

قام "ليث" بحجز تذكرة القطار الذي سينقله إلى رفح ومنها إلى غزة بعد توقف حركة القطارات بفلسطين، ثم عاد إلى المنزل ليجمع متعلقاته ويرحل، لم يترك أي شيء له هناك، ينوى على عدم العودة لمصر ثانيةً وترك مجال كرة القدم برمته.

وهو يستعد للرحيل وجد كابتن " صبري" يقف أمامه يرتدي بدلة سوداء يبدو في غاية التألق، وجهه سعيد، سعيد للغاية، وهو ما جعل "ليث" يشعر بأن كابتن " صبري" ولأول مرة لم يشعر به ولم يقف بجانبه في محنته، وإن كان ما هو فيه كارثة وليست محنة.

فوضع كابتن " صبري" يده على كتف "ليث" وقال:

- التمس لي العذر، ظللتُ طيلة حياتي أبحث عن الحب وحين أجده أتركه وأرحل للحرب والخراب ؟ أنا رجل تخطى عمره حاجز الأربعين عام، ومن حقي أن أتزوج أؤسس أسرة وحياة ومستقبل، لا تقسُ عليَّ والتمس لي العذر، أنا أحبك كثيرًا، ولكن هذه هي الحياة لا يوجد بها حقيقة واحدة سوى الفراق.

فنظر له "ليث" ثم قال بسخرية:

- أولًا لا تقل رجلًا، لا يوجد رجل يترك وطنه محتلًا ويدنس اليهود شوارعه ويذهب هو ليتزوج ويبني حياة ببلد أخرى، شكرًا لك ولهذه الأيام المريرة التي قضيتها بعيدًا عن أسرتي لأنها جعلت مني رجلًا، رجلًا حقيقيًا في وقتٍ قصير.

ثم قام "ليث" بإبعاد يده عن كتفه وحمل حقيبته ورحل، بينما ظل "صبري" مندهشًا من حديث "ليث"، ليس هذا "ليث" الذي كان بمقدوره أن يحتويه ببعض الكلمات، وقعت كلمات "ليث" على " صبري" كلوح من الثلج يوضع على جسد درجة حرارته أربعين، انطوت الفرحة بداخله تمامًا، ووقف ينظر "لليث" من النافذة وهو يختفي بين الحواري والأزقة.

قبل أن تقوم "دنيا" باحتضانه من الخلف قائلة بصوتها العذب:

- بماذا تفكر؟
- لا شيء
- رأيت "ليث" وهو راحل، أعلم أن فراقه صعب عليك، وأعلم كم تكنُّ له من الحب، ولكن هذا اختياره وهو من أراد أن يتركك ويترك حلمه ويذهب للحرب والخراب

فنظر لها " صبري" بغضب وقال بمنتهى العصبية:

- أي حلم؟ هل عليه أن يترك والده وحيدًا مريضًا ويظل هنا بجانبي بسبب زواجي؟ كم أنا أناني لا أحب غير ذاتي، ذاتي وفقط مثلك تماما لذلك جمعنا الله معًا، أنتِ السبب في كل ذلك .

فانهمرت "دنيا" في البكاء بقوة وقالت:

- أنا السبب في كل ذلك؟ أنا من جعلتك تتركه؟ وأنا من جعلت والده مريضًا، وقتلت أخته ووالدته؟ أنا السبب في احتلال فلسطين أيضًا؟ شكرًا لك كثيرًا .

واتجهت سريعًا باتجاه الباب قبل أن يسحبها "صبري" من يدها ويحتضنها ويهمس في أذنها قائلا:

- لم أقصد كل ذلك، ولكن تداخلت أفكاري بسبب الغضب مما حدث، أعتذر لكِ، أحبك كثيرًا، ولن أتركك أبدًا.

فعادت لها ابتسامتها واحتضنته بقوة قبل أن يهمس لها ثانيةً قائلًا:

- اذهبي لاستكمال ملابسك، فاليوم سوف تكونين أجمل عروس عرفتها البشرية.

أسعدتها كثيرًا تلك الكلمات فقبَّلته على وجنته ورحلت، بينما ظل هو يدخن سيجارته وينظر من النافذة لعل وعسى أن يتراجع "ليث" عن قراره ويعود.

* * *

تأخر كل من " فيروز" و"أحمد" لمدة خمس ساعات علاوةً على الغارة التي حدثت أدى ذلك إلى اشتعال القلق بقلب " عائشة"، مما جعلها تخرج للبحث عنهما بعد انتهاء الغارة.

بدأت جولتها في البحث بداية من الشاطئ إلى السوق إلى الحدائق لم تجد لهما أي أثر، لم يتبقَ لها سوى المستشفيات، قلبها لا يريد الذهاب إلى هناك وعقلها يؤكد أنهم بكل تأكيد هناك بعد بحثها المتواصل في كل مكان، بدأت البحث في المستشفيات القريبة من الشاطئ بعدما أبلغتها " فيروز" بمقابلتهم هناك.

لم تجدها في أول مشفى، وعند دخولها ثاني مشفى قامت بسؤال أحد المسؤولين عن التمريض بوجود حالات مصابة هنا من الغارة الأخيرة، فأكدت لها على وجود حالات وأشارت لها على مكان تواجدهم، وأثناء ذهابها وجدت ما كانت تتوقعه ولا تريده، "أحمد" جالس على الأرض واضع وجهه بين يديه ومنهمر في البكاء، لتنحني عليه وتقول:

- "فيروز" أصيبت؟

فنظر لها بعينيه شديدة الحمرة من البكاء، وعندما تعرف عليها عاد إلى وضعيته السابقة، ولكن هذه المرة زادت نبرات صوته الباكية قبل أن تعاود سؤاله ثانيةً بعصبية وانفعال:

- أين " فيروز"؟

فأشار لها على مكان تواجدها بإصبعه، فذهبت إلى هناك ووجدت سرائر كثيرة يتواجد عليها جثث هامدة مغطى وجهها، شعرت بدوار قوي للحظات، لقد فقدت أعز ما تملك في تلك اللحظة، ثم استجمعت قواها وبدأت في البحث عن جثة ابنتها.

عندما وجدت جثة ابنتها وسط الكم الهائل من الجثث المتواجد، وجدت وجهها مبتسمًا فتذكرت سريعًا قوله تعالى (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ)، فشعرت بأن ابنتها ذهبت إلى مكان أفضل وأروع من هنا، وتلك علامة من الله ليريح قلبها من فقد أعز ما تملك على هذه الأرض، فقبَّلت وجهها وقالت باكية:

- تركتنِي وذهبتِ ولكن أنا سعيدة لكِ، تمنيتِ الشهادة وها قد استجاب الله، أتمنى أن تنتهي هذه الدنيا سريعًا ليجمعنا الله معًا في جنته، أحبك.

ثم عانقتها وغطت وجهها ثانيةً وذهبت إلى "أحمد" لتبشره وتشد من أزره، جلست بجواره ووضعت يديها على كتفه وقالت:

- لا تحزن، "فيروز" في مكان أفضل من الدنيا والحرب والخراب، "فيروز" تبتسم، بالتأكيد هي في الجنة الآن.

بصوت متقطع منهمك في البكاء:

- لذلك كنت أتمنى أن نتزوج سريعًا، وحين استشهاد إحدانا يجمعنا الله معًا بجنته، ولكن هي لم تفهم ذلك، يا الله لا أستطيع العيش دونها، يا الله اجمعني بها عاجلًا وليس آجلًا.

فاحتضنته " عائشة" وقالت ودموعها بدأت تسيل:

- الجميع يشهد على حبكم، وذلك يكفي، وأنت كنت في حكم زوجها، وسيجمعكم الله معًا ثانيةً في مكان جميل بلا حرب ودماء وقتل وخراب وصهاينة أنجاس.

- أتمنى ذلك يا "عائشة"، أتمنى.

فربتت " عائشة" على كتفه وبدأت تزيل الدموع عن وجهه وقالت:

- يجب علينا أن نسعد، ونتمنى أن يحسن الله ختامنا مثلها، هيا بنا لنبدأ في تحضير أوراق الدفن حتى نشيعها لمثواها الأخير، ثم نبدأ في التخطيط للانتقام لها من بني صهيون.

لم يستوعب "أحمد" جملتها الأخيرة بخصوص الانتقام، ولكنها أطفأت بعض اللهيب من قلبه، بأنه سوف ينتقم من قتلة أخيه وحبيبته.

* * *

وفي إحدى الليالي أثناء ذهاب عبد السميع للعمل الذي يبعد عن منزله ببضعة أمتار، وقفت سيارة سوداء بدون لوحات مرورية بها أربع رجال ملثمون حاملون بنادق، قاموا بتصفية عبد السميع تمامًا ب ٢١ طلقة في جميع أنحاء جسده، ورحلوا سريعًا، وبعد مرور بضعة أشهر حُفِظت القضية ضد مجهول، ولم يعلم أحد من هم هؤلاء الرجال، ومن الذي أرسلهم، ولماذا قاموا بقتله بتلك الطريقة الوحشية.

(١١)

وصل "ليث" إلى القطار، وضع حقيبته أعلى المقعد الذي يجلس عليه، وظل ينظر إلى وجوه الجالسين معه بالقطار، بدأ يتخيل ويضع لكل شخص قصة، لماذا هم هنا في القاهرة والآن عائدون إلى فلسطين؟ هل كل شخص من المتواجدين أمامه عائد بسبب فقد عائلته، وتهجير أهله من منازلهم فعائد للمقاومة والحرب والانتقام؟ ظل سارحًا هكذا حتى فاجأه صوت أعاده إلى أرض الواقع ثانيةً:

- هل تسمح لي بالجلوس بجوارك؟!

فقام "ليث" بهز رأسه قائلًا:

- بكل تأكيد

فابتسم الشاب وقال:

- "ليث"، لم تتعرف علي بعد ؟

لم يكن "ليث" ينظر إلى وجهه، ولكن بعد هذه الجملة نظر إليه وقال:

- "جهاد "؟ كيف حالك يا رجل؟!
- الحمد لله بخير، وأنت؟!
- الحمد لله بخير، ماذا تفعل بمصر؟!

- جئتُ إلى مصر بغرض الدراسة بجامعة القاهرة، واستغليت الإجازة للعودة إلى الوطن الغالي والأحباب، قرأت عنك كثيرًا بالصحف بعد تألقك في الفترة الأخيرة، وبحثت عنك كثيرًا ولكن لم أتوصل إليك

فابتسم "ليث" ابتسامة تخفي كثيرًا من الألم والحزن الذي بداخله ثم قال:

- الحمد لله هذا توفيق من الله، ولكني تركت كل ذلك وعائد إلى فلسطين نهائيًا.
- بسبب استشهاد أخيك؟

فأستدار له سريعًا وقال:

- "سيف الدين" استشهد؟
- أنت لا تعلم؟! "سيف الدين" استشهد منذ أكثر من ثلاثة أشهر

فأخذ يطرق على المقعد الذي أمامه:

- لماذا لم يخبرني أحد أن "سيف الدين" هو الآخر استشهد مثل أمي وأختي وأخبروني بأنه معتقل فقط؟ يا الله كن رحيمًا بي وأطل في عمر أبي حتى ألقاه.

فقام "جهاد" بوضع يده على كتف "ليث" وقال:

- آسف، لم أكن أعلم أنك لا تعلم خبر استشهاده، هو كان بالمعتقل بالفعل وخلال تهريبه، قام بقتل ثمانية جنود صهاينة، فاستشهد، لا

تحزن شقيقك بطل من أبطال فلسطين، يتحاكى الناس بقصته مع بقية الأبطال الذين قدموا أرواحهم فداءً لوطنهم.

- الحمد لله على كل شيء، هكذا هي الحياة سلبت مني أعز الأشخاص وهم لا يعلمون بأنهم أعز الأشخاص لدي.

بعد ذلك تحرك القطار في طريقه إلى رفح، وخيم الصمت عليهما، ظل "ليث" ينظر من النافذة سارحًا في أفكاره، بينما جلس "جهاد" يقرأ في أحد الكتب التي كانت بحوزته.

* * *

بعد الانتهاء من مراسم الدفن والعزاء، أرادت " عائشة" "أحمد" بموضوع في غاية الأهمية، وفي ذات الوقت كان "أحمد" يريد معرفة كيفية الانتقام، فأشارت له لينتظرها بالخارج، فاستجاب للإشارة وذهب لانتظارها خارج المخيم.

وعندما ذهبت إليه لم تقل أي شيء فقط احتضنته، ربما ذلك الحضن أبلغ من أي حديث، فكلاهما في أشد الحاجة إلى ذلك الحضن، " عائشة" لشعورها بمكانة "أحمد" لدى ابنتها رحمها الله وأنه قطعة منها، و"أحمد" ليشعر بحنان الأم الذي حرمته منه والدته بسبب قوتها وصلابتها في التعامل، على عكس جميع الأمهات.

ثم نظرت له " عائشة" وبصوت مخنوق من البكاء قالت:

- سوف أشتاق لك كثيرًا

فنظر لها بحيرة وقال:

- تشتاقين لي ؟ هل ستغادرين فلسطين ؟

ابتسمت وربتت على كتفه وقالت:

- لا لن أترك فلسطين
- لماذا إذًا ستشتاقين لي ؟ لن أتركك للحظة
- سوف أخبرك بكل شيء في حينه

فهز رأسه وقال:

- حسنًا، ماذا عن الانتقام؟ ما الخطة التي برأسك للانتقام؟ أم حديثك عن هذا الموضوع كان لتهدئتي فقط ؟
- لا لم يكن لتهدئتك فقط، أنا مسئولة عن كل كلمة قلتها لك، ولكن أترك كل شيء لحينه، الآن يوجد شيء أهم من ذلك، وهو ما أردت إخبارك به
- ما هو؟
- أعي أن الوقت غير مناسب، ولكن يجب أن تنفذ ما سأقوله لك؛ حتى تساعدني على ما أنا مقدمة عليه

فازدادت حيرته وحك ذقنه وقال:

- الآن وبدون مقدمات أخرى، ماذا تريدين ؟

فابتسمت وقالت:

- حسنًا "سيف الدين" استشهد وترك أطفال وزوجة دون سند، وأنت تعلم أن والدها أصبح غير قادر على العمل بحكم سنه، ولن يستطع تحمل مسئولية أطفال وأسرة، و"ياسين" أصبح رفيق الفراش وغير قادر أيضًا على تحمل مسئولية أحد، ولم يبقَ سواك، لذلك عليك أن تتزوج "أميرة"، وترعاها هي وأطفالها، أتمنى أن تعي ما أقول بعقلك المستنير

باندهاش واضح على وجهه قال:

- ماذا؟ لكن "أميرة" مثل أختي، وكانت زوجة صديق عمري ولا أتخيل نفسي معها، وأيضًا أنا عاهدت " فيروز" أنني لن أتزوج حتى يجمعني بها الله في الآخرة، وهل تعتقدين أن ذلك الوقت مناسب للحديث عن موضوع كهذا؟
- أعلم أن الوقت غير مناسب، ولكن يجب أن آخذ منك وعدًا الآن، وستعلم لماذا قلت لك في ذلك التوقيت، ولكن عن قريب

وضع وجهه في الأرض وتحدث مع ذاته ثم قال:

- لا، لن أستطيع فعل ذلك

فربتت " عائشة" على كتفه وقالت:

- لا، ستستطيع فعل ذلك، من أجلي وأجل الأطفال وأمهم، أعلم أن وضعك صعب، ولكن تخيل كم الحسنات التي ستأخذها، أنت تنقذ أسرة من الضياع، من الممكن أن يجمعك الله مع " فيروز" ثانيةً بجنته بسبب ذلك الموضوع

فتنهد بقوة وقال:

- اتركيني أفكر
- حسنًا، ولكن لا يوجد وقت، أمامك يومان فقط من الآن

فهز "أحمد" رأسه بالموافقة دون أي حديث فنظرت له وابتسمت وقالت:

- علينا أن نعود الآن يا بطل
- حسنًا، هيا بنا

وعادا إلى المخيم ثانيةً لاستكمال واجب العزاء، كان "أحمد" حاضرًا بجسده فقط في ذلك التوقيت وعقله يفكر بحديث " عائشة" له وماذا سيفعل.

* * *

وصل القطار إلى مدينة رفح المصرية، ولكن حدث ما كان لا يتوقعه "ليث" وصديق أخيه "جهاد"، أغلقت القوات المصرية معبر رفح المؤدي إلى فلسطين، ومنع أي شخص من العبور إلى فلسطين والعكس، والاكتفاء بدخول بعض المعونات الغذائية والأدوية فقط، فذهب "ليث" و "جهاد" إلى أحد الضباط المتواجدين لإقناعه بضرورة عبورهم إلى فلسطين، فبدأ "ليث" الحديث قائلًا:

- يا فندم هناك ضرورة قصوى تحتم عبوري، أرجوك اسمح لي بالعبور حتى إن كان على سبيل الاستثناء

فأشار له الضابط بالرفض ثم قال:

- هناك حالة طوارئ، وممنوع منعًا باتًا مرور أحد .

فقال "ليث" في هدوء واستسماح:

- أنا أريد المرور إلى بلادي، وسوف أتحمل عواقب ذلك، ليس لأحد دخل في ذلك، أبي مريض وفي حاجة لي بجانبه
- لا يوجد شيء بيدي سوى أن أرسل طلبك لقائد الكتيبة، آسف

فركل "ليث" البوابة بقدمه من شدة العصبية، قبل أن يبعده "جهاد" عن المعبر بمسافة لا تقل عن عشرين مترًا، ثم بدأ يتحدث معه قائلا:

- اهدأ، سوف نعبر ولكن علينا الانتظار هنا بعض الوقت

فقال "ليث" بعصبية:

- ولماذا ننتظر بالشارع ؟ فهذه بلادي وأريد العبور إليها وأنا المسئول عن حياتي، لا دخل لأحد في ذلك

فقام "جهاد" بالربت على كتفه وقال:

- أعلم ما تشعر به، ولكن تذكر دائمًا أن الصبر مفتاح الفرج

وبعد مرور أربع وعشرن ساعة على تواجدهم أمام المعبر ذهب "ليث" ثانية إلى الضابط ليستفسر منه، هل ينتظر أم يعود من حيث جاء:

- هل أرسل طلبي ؟! أربع وعشرون ساعة من النوم على الأرصفة غير كافية لعبور المعبر!

فقال الضابط بابتسامة هادئة لامتصاص غضب "ليث":

- آسف جدًا لك، أعلم مدى صعوبة موقفك، ولكن كل ذلك حفاظًا على حياتك أولًا، على العموم ستمر من المعبر خلال الساعات القليلة القادمة، داخل إحدى مدرعات الجيش المصري

فنظر له "ليث" وكتم غضبه وقال:

- أتمنى ذلك، شكرًا لك

وعاد ثانيةً ليجلس بجانب "جهاد" على حقائبه ليقول له في هدوء

- لقد وعدني بالمرور خلال الساعات القليلة القادمة بإحدى مدرعات الجيش المصري، هل تعتقد بأنه سوف يفي بوعده؟! أم سنظل هنا كثيرًا؟
- بالتأكيد سوف يفي بوعده، حاول أن ترتاح قليلًا الآن
- لن تغفل عيني في الشارع بكل تأكيد

فقال "جهاد" وهو يقاوم النوم:

- كما تريد، سوف أغفو أنا قليلًا

بالفعل ذهب "جهاد" لعالم الأحلام، بينما ظل "ليث" مستيقظًا يفكر في المستقبل وماذا تخبئ له الأيام، وبعد مرور ست ساعات آخرين قام الضابط بتنفيذ وعده لـ "ليث"، وعبر إلى فلسطين هو و "جهاد" بمدرعة خاصة بالجيش المصري، فذهب "ليث" إلى غزة لمخيم دير البلح، بينما ذهب

"جهاد" إلى الضفة الغربية لمخيم عائدة، واتفقا على أن يجتمعا معًا الجمعة القادمة للصلاة في المسجد الأقصى .

* * *

الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، خرجت "عائشة" من المخيم على أطراف أصابعها حتى لا يراها أحد، ولكن حدث ما لا تتمناه، كان يجلس "أحمد" بالخارج يفكر بما سيفعل الأيام القادمة، وبطلب "عائشة" الصعب، وعندما رآها اندهش في البداية، ثم بدأ في تتبعها حتى وقفت في أحد شوارع غزة المظلمة، مع رجل قوي البنية، كثيف اللحية، غليظ الوجه والملامح، بينما اختبأ "أحمد" خلف إحدى الأشجار يسمع الحديث الذي يدور بينهما.

بدأت "عائشة" الحديث قائلة:

- مرحبًا، أنا "عائشة"
- وأنا "طاهر أبو حديدة"، عضو في حركة المقاومة
- أهلًا بك، أريد معرفة موعد العملية

قال "أبو حديدة" بدهشة:

- سريعًا هكذا، لابد من التدريب على الأقل لمدة اسبوعين

قالت "عائشة" بصرامة وجدية:

- لا أعتقد أن العملية تحتاج إلى تدريب

- حسنًا، ولكن لابد من التحضير وعدم التسرع حتى تتم بنجاح، تذكري أنها عملية لأول مرة تحدث على الأراضي الفلسطينية
- أعلم ذلك، فأحفاد القردة هم من أجبرونا على فعل ذلك، ولكننا لن نهنيهم بدقيقة واحدة على أرضنا، حتى لو سيكلف ذلك أرواحنا، فلسنا أقل ممن استشهدوا.

قال" أبو حديدة" بسعادة:

- كنت على يقين أنك ذو عقلية مختلفة بعد موافقتك على إتمام تلك العملية، أعتقد في المستقبل سيتذكر الفلسطينيون بعد استرداد أرضهم ذلك الاسم جيدًا (عائشة عبد الرحمن)
- أتمنى فقط أن أقتص لابنتي ولكل فلسطيني قُتِل غدرًا.
- سيحدث ذلك بإذن الله، سوف أبلغك بموعد العملية بعد غد، هنا في نفس المكان والتوقيت
- إن شاء الله، ولكن أرجو عدم تأخير العملية أكثر من ذلك
- لا تقلقي، على الأسبوع القادم على أقصى تقدير ستنفذ

قالت بابتسامة:

- أتمنى ذلك إن شاء الله
- إن شاء الله

ثم رحل كل منهم في الطريق المعاكس، وهنا خرج "أحمد" من مخبأه، وظل ينظر إليها دون حديث، ثم قال في استياء شديد:

- لماذا لم تخبريني كل ذلك الوقت ؟
- كنت سأخبرك بكل شيء قبل التنفيذ بأيام قليلة، مثلما قلت لك في السابق
- وما نوع العملية ؟!
- سأبلغك قبل العملية بأيام قليلة أيضًا

زاد استياء "أحمد" وبغضب قال:

- لا، الآن، وإلا لن أجعلك تذهبين لتنفيذ تلك العملية
- سوف أبلغك بها الآن، لكن عليك أن تعلم أنه لا يوجد قوة على وجه الأرض ستجعلني أتراجع عن التنفيذ
- حسنًا، ما هي ؟
- عملية استشهادية
- ماذا ؟! هل شت عقلك ؟!
- قلت لك أنني لن أتراجع

فقال بغضب شديد:

- لن تتراجعي عن ماذا ؟! هذا لن يحدث بأي شكل من الأشكال

فاستنشقت بعض من الأكسجين للاستعداد للمعركة التي ستخوضها الآن مع "أحمد" فقالت:

- هذه أول عملية استشهادية ستحدث في فلسطين، ولن يقوم بها أحد غيري، أنا فقدت ابنتي وفقدت "سيف الدين" أشجع الرجال، أتمنى أن أكون أنا المفقودة التالية وليست فاقدة مثل قبل.
- من قال لك أن العملية الانتحارية سوف تجعلك شهيدة وليس العكس مجرد منتحرة كفرت بالله ؟

فقالت بهدوء:

- سوف أذهب معك إلى إمام المسجد الأقصى، وهو من سيرشدنا إلى الحق، وإن كان رأيه مثل رأيك، أعدك بعدم تنفيذ تلك العملية، ولكن إن كان مثل رأيي سوف أنفذها إن شاء الله
- اتفقنا، ولكن لن تذهبي إلى أي مكان ثانيةً دوني أو دون معرفتي على الأقل
- حسنًا، كنت سأبلغك بكل شيء، ولكن كنت أنتظر الوقت المناسب

فهز رأسه إشارةً منه على تفهم ذلك ثم قال:

- يوم الجمعة بعد غد عطلة، سنذهب إلى المسجد الأقصى معًا
- اتفقنا، علينا الآن أن نعود إلى المخيم
- حسنًا، هيا بنا

وعادا إلى المخيم وبداخلهم حماس لمعرفة رأي الإمام بتلك العملية، يتمنى "أحمد" تماثل رأي الإمام مع رأيه، بينما تدعو " عائشة" الله أن تتم العملية بغض النظر عن تلك الفتوى.

وفي أحد أيام العمل الشاقة بالمزرعة، وأثناء الاستراحة جلس "غسان" والد "أحمد" بجواره وقال:

- العمل هنا أصبح في غاية الصعوبة والمشقة، أصبحتُ غير قادر على ذلك الوضع

فقال "أحمد" بهدوء ورضا وهو يحتسي كوبًا من الشاي:

- الحمد لله، هذا قضاء الله، ولا يوجد شيء لنفعله

فقال "غسان" بصوت مرتجف قليلًا:

- بلى يوجد شيء لنفعله

فنظر له "أحمد" بدهشة وقال:

- وما هو ذلك الشيء؟
- الهجرة

وقعت الكلمة كالصاعقة على أذن "أحمد" الذي نظر لأبيه بشيء من الحيرة وقال:

- إلى أين؟ ومن أين سنأتي بنقود الهجرة؟
- صديق لي، عرض عليَ سفري أنا وأنت وأمك إلى تشيلي، وتوفير إحدى الوظائف لي ولك، ومبلغ مالي للسفر به
- وما المقابل؟
- إمضائي بعقد بيع منزلنا بيافا

فقال بهدوء غريب:

- لليهود؟
- لا أعلم

بسخرية قال:

- من الذي يعلم إذًا؟
- لا تتحدث معي هكذا، المنزل تحت سيطرة اليهود شئنا أم أبينا، لماذا لا ننتفع إذًا بتلك الأموال ونرحل بعيدًا عن الحرب والخراب؟!

فوقف "أحمد" وقال:

- لدي عمل يرزقني منه الله أموالًا حلال لشراء غذاء حلال، حتى أقدر على البقاء هنا وتحرير تلك الأرض، مع السلامة، تستطيع أن تهاجر وتذهب أينما شئت

وعاد لاستكمال عمله، بينما غادر والده المزرعة ويبدو أن الهجرة أصبحت قرارًا وليس خيارًا.

* * *

(١٢)

يترجل "ليث" داخل مخيم دير البلح ينظر إلى وجوه الناس الفقيرة التي بلا مسكن ولا مأكل ولا ملبس، مجرد بضع من الخيام التي قامت الشمس بنحلها ليقوموا بترقيعها ببعض من الأقمشة القديمة، حمام واحد داخل المخيم يقضي كل المتواجدين بالمخيم حاجتهم فيه، ظل يسير ويلعن اليهود واليوم الذي قرروا بناء دولتهم على أرض بلاده ومن قاموا بمساعدتهم كإنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا وبعض الدول العربية، لم يكن يتوقع هذا الفقر المضجع في بلاده يومًا من الأيام.

وعند شعوره بالإرهاق من السير قرر سؤال أحد الجالسين عن خيمة والده قائلًا:

- أين خيمة "ياسين"؟!
- أي "ياسين"؟! يوجد هنا أكثر من خمسمائة "ياسين"
- "ياسين أحمد"، معه رجل يطلق عليه " أمين"
- لا أعلم، ابحث في الجهة الأخرى من المخيم

فهز "ليث" رأسه وتوجه إلى الجهة الأخرى، حل عليه التعب بسبب مشقة السفر والسير، فجلس يستند على جذع شجرة ليستظل بظلها، وأثناء جلوسه ظل ينظر إلى وجوه المارة أيضًا، ليمر أمامه شاب يشبه "أحمد" كثيرًا، ولكن قدمه مبتورة ويبدو عليه العجز قليلًا عن "أحمد" صديق أخيه.

عندما نظر له ذلك الشاب صرخ في وجهه بدهشه قائلًا:

- "ليث" ؟!

فنظر له "ليث" وقال وهو يكذب عقله:

- هل تعرفني ؟!

فقال "أحمد" بحزن:

- ألا تتذكرني ؟!

فاستجمع "ليث" قواه سريعًا، وحاول السيطرة على نبضات قلبه المسموعة وقال:

- أنت "أحمد" ؟! ماذا حدث لقدمك ؟! وما هذا الشعر الأبيض الكثيف ؟!
- فقدتُها بالحرب، فقدتُ قدمي وفقدتُ أخي "سيف الدين" وفقدتُ "فيروز"، وقريبًا سوف أفقد "عائشة"، ولكن سوف نتحدث عن كل ذلك باستفاضة فيما بعد، أنت كيف حالك ؟! ولماذا عدت من مصر ؟!
- "فيروز" قُتِلت ؟!
- نعم، قُتِلت في غارة من الغارات الصهيونية

فربت "ليث" على كتفه ثم احتضنه وقال:

- إنا لله وإنا إليه راجعون، وأنا فقدتُ كل أسرتي ماعدا أبي، لذلك عائد اليوم إلى هنا لأراه
- الحمد لله على كل شيء، سوف تراه وتعود ؟!

- لا لن أعود إلى مصر ثانيةً
- لماذا ؟! وأين كابتن "صبري" ؟!
- أُريد استكمال حياتي هنا بينكم ومع أبي، "صبري" تزوج وفضَّل الحياة هناك

فهز "أحمد" رأسه، وامتلأ وجهه بالسعادة بعد رؤيته لـ "ليث" ثم قال:

- هيا بنا الآن نذهب للخيمة الخاصة بنا، وسوف نعاود الحديث باستفاضة فيما بعد.

فابتسم "ليث" وقال:

- حسنًا، هيا بنا.

وفي طريق ذهابهم إلى الخيمة، شعر "ليث" بمشاعر مختلفة ومتضاربة، تغمره بعض من السعادة بسبب عودته لأهله وناسه، وكثير من الحزن بسبب فقدان إخوته وأمه وبيته وكل مكان يحمل ذكرى لطفولته.

عند وصوله لمدخل الخيمة التي يرقد بها والده، نظر لـ "أحمد" وقال:

- هل يوجد أحد هنا غير أبي ؟
- لا، عم "أمين" بالعمل
- حسنًا، اتركنا وحدنا

فهز "أحمد" رأسه بالموافقة ورحل .

وعند دخوله إلى الخيمة ومع سقوط أول نظرة له على أبيه، وجده في شدة النحالة، المرض يسيطر عليه تمامًا، فاتجه نحوه وقبَّل يده وقال:

- اشتقت لك كثيرًا، آسف على كل لحظة قضيتها بعيدًا عنك بسبب أوهام وأحلام زائفة

نظر له "ياسين" ثم احتضنه بقوة وقال:

- لا تندم على شيء، أنت لم تكن تعلم الغيب وما سيحدث، الأهم الآن وجودك معي، كنت أدعو الله ألا يأخذني إليه إلا عندما أراك، وها هو قد استجاب، لم يبقَ لي أحدٌ سواك أنت وأطفال "سيف الدين."
- لا تقل هذا، ستظل معي لأطول وقت ممكن بإذن الله، "سيف الدين" لديه أطفال؟

فابتسم "ياسين" وقبَّل ابنه من رأسه وقال:

- ما يريده الله سيُنفذ، نعم وهو في المعتقل قبل استشهاده، رزقه الله بيافا و"سيف الدين" الصغير، يشبهك للغاية
- أين هما؟
- بالخيمة المجاورة، انتظر اريد أن أتحدث معك بشيء مهم، ثم اذهب لهم
- ما هو يا أبي؟!

فمد "ياسين" يده في جيب سرواله وأخرج مفتاح البيت القديم بيافا وقال:

- هذا مفتاح منزلنا بيافا، هذا هو ميراثك مني، حافظ عليه جيدًا، سيأتي الوقت الذي ستعود فيه إلى منزلنا، وحافظ على أولاد أخيك جيدًا، أنت المسؤول عنهم الآن وعلى توريثهم ذلك المفتاح وإن طالت الشدة.

فأخذ "ليث" المفتاح وقبَّل يد والده وقال:

- لا تقلق، التجربة السابقة جعلت مني رجلًا يمكنك الاعتماد عليه مثل "سيف الدين" رحمه الله

فابتسم "ياسين" وربت على كتفه وقال:

- أنت رجل منذ البداية يا "ليث"

فاحتضن أبيه بقوة وقال:

- أدامك الله بيننا يا أبي
- هيا، اذهب لترى أولاد أخيك، ولكن لا تقل أمام "أميرة" أن أخيك توفى؛ فهي لا تعلم، تعتقد أنه مازال معتقلًا
- حسنًا يا أبي، لا تقلق

فذهب "ليث" إلى الخيمة المجاورة المتواجدة بها "أميرة" وأطفالها و" عائشة" ووالدة "أميرة" ووالدة "أحمد"، وقف على مدخل الخيمة وقال:

- السلام عليكم، هل أحد هنا

ردت " عائشة" قائلة:

- عليكم السلام، من ؟!
- أنا "ليث"، جئتُ من مصر

فاتجهت" عائشة" نحوه سريعًا ونظرت له باسمة وقالت:

- الحمد لله على سلامتك، كنا نفقد الأمل في عودتك ثانيةً
- لماذا ؟
- هل يوجد عاقل يترك بلد بلا حرب وخراب ليأتي للحرب والخراب من جديد؟
- نعم، أنا، هذه بلدي وأرضي، ولن أتركها ثانيةً إن شاء الله

ثم نظر إليها وبسخرية قليلة قال:

-سنظل هنا على مدخل الخيمة ؟!

فضحكت وأشارت بلا، ثم صوبت وجهها داخل الخيمة وبخفة ظل كما كان معروف عنها قالت:

- "ليث" قادم، هل أحد منكم لا يرتدي ملابسه

ثم نظرت إليه وبضحكة أخرى:

- الطقس مميت هنا

فاكتفى "ليث" بالضحك قبل أن يأتيها إذن من الداخل يسمح لهم بالدخول، فاتجه "ليث" نحو الأطفال مباشرةً بعد إلقائه السلام على الجميع، كانوا توأمًا متشابهين إلى حدٍ ما، ولد وبنت في السنة الأولى من عمرهما، "سيف الدين"

الصغير يشبه "ليث" كثيرًا، شعر بني داكن، بشرة خمرية رائعة، عيون شديدة السواد، بينما يافا كانت أقرب في الشكل إلى "سيف الدين" الكبير، شعر أسود، عيون ذات لون بني داكن، بشرة فاتحة قليلًا.

فجلس "ليث" على المقعد ووضع الأطفال على قدميه وظل يلهو معهم دون الالتفات لأحد تمامًا، وظل هكذا حتى خلد الأطفال إلى النوم بين أحضان عمهم صغير السن كبير الخبرة والمعرفة، ثم استأذن "ليث" ليذهب إلى خيمة الرجال ليرتاح قليلًا من مشقة السفر، على وعد منه أن يروي كل ما حدث له بعد أن يستيقظ.

* * *

استيقظ "أحمد" باكرًا صباح يوم الجمعة ليستعد للسفر إلى القدس بصحبة "عائشة"، ذهب إلى خيمة النساء ليوقظ "عائشة"، فظل ينادي عليها من الخارج حتى استيقظت، وعاد لتغيير ملابسه وتحضير بعض أغراض السفر من المأكل والمشرب.

وأثناء ذلك استيقظ "ليث" لينظر إليه ويقول:

- إلى أين تذهب ؟!
- للمسجد الأقصى، لصلاة الجمعة

فقال "ليث" بصوت متعب من قلة النوم والإرهاق:

- سوف آتي معك
- لا، يبدو عليك الارهاق

فوقف "ليث" ووضع المنشفة على كتفه وقال:

- سوف آتى معك، أريد أن أغسل وجهي

فهز "أحمد" رأسه بالموافقة.

* * *

بعدها ذهبوا بسيارة أجرة تنقلهم إلى المسجد الأقصى، وكان "ليث" طوال الطريق يشعر بتبادل بعض النظرات الغريبة بين "أحمد" و" عائشة"، يوجد شيء لا يعلمه سواهما، شيء مريب سوف يحدث بكل تأكيد، ولكن لا يعلم ما هو.

وعندما وضع "ليث" قدمه في ساحات المسجد الأقصى بدأ يتذكر ذكرياته هنا مع أسرته، لهوه مع "صبا" وجلساته مع أبيه لحفظ القرآن الكريم، والمناقشات الساخنة التي كانت تدور بين "سيف الدين" وأبيه والتي لم يفهمها إلا الآن، ثم رفع يده وعينه إلى السماء وبدأ في الدعاء لهما ولأبيه ولوطنه، ثم افترقوا، ذهبت "عائشة" إلى مصلى السيدات، وهما إلى مصلى الرجال، بعد اتفاقهم على التجمع عند باب مصلى الرجال بعد انتهاء الصلاة، وفي الطريق إلى الصلاة قال "ليث":

- سوف أذهب للوضوء

فنظر له "أحمد" بسخرية قائلًا:

- علمتُ الآن مصدر الرائحة الكريهة التي كانت بالسيارة

فضحك "ليث" بقوة ثم قال:

- لا لم أكن أنا، لكني أفضّل فقط الوضوء من جديد مع كل صلاة

قال "أحمد" بابتسامة:

- حسنًا، أراك بعد الصلاة هنا عند مدخل المسجد

فهز رأسه موافقةً على كلام "أحمد"، ثم ذهب للوضوء ومنه إلى المسجد، سند ظهره على أحد أعمدة المسجد في انتظار صعود الإمام للمنبر، وعند بداية الخطبة بدأ "ليث" بالإنصات له بتركيز شديد على غير عادته.

ظل الخطيب طوال الخطبة يروي قصصًا وغزوات للرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته، كانت أعدادهم بها قليلة ولكن نصرهم الله، بسبب إيمانهم ويقينهم بروعة الموت في سبيل الله، حتى يحث الناس على الجهاد وعدم ترك أرضهم بسهوله لليهود، وظل يردد ويؤكد مثل كل خطبة عن خروج كل مسلم باع أرضه لصهيوني من الملة، لأن من باع أرضه كمن باع عرضه، وباع المسجد الأقصى أيضًا من أجل بعض من المال الصهيوني الملوث، وبعد الانتهاء من الخطبة، صلى ركعتين الجمعة ببعض آيات الجهاد في سبيل الله في الركعة الأولى آيات من صورة الصف (يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلك خير لكم إن كنتم تعلمون. يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم. وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين)، وفي الركعة الثانية آيات تدل على أهمية ومكانة المسجد الأقصى لدى

المسلمين من سورة الإسراء ((سُبْحَانَ الَذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ المَسْجِدِ الحَرَامِ إِلَى المَسْجِدِ الأَقْصَى الَذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ))

وعند انتهاء الصلاة اجتمعوا ثانيةً عند مدخل المسجد، وبدأ "أحمد" الحديث:

- تقبل الله منا جميعًا

ليرددا ورائه بآمين، فعاود "أحمد" الحديث ثانيةً:

- سوف أذهب أنا و" عائشة" لإمام المسجد لاستشارته ببعض الأمور وسوف نعود لك ثانيةً
- حسنًا سوف آتي معكما

فنظر "أحمد" لـ " عائشة" ببعض من الارتباك وصمت، قبل أن تقطع هي الصمت المخيم على المكان قائلة:

- حسنًا، هيا بنا

وعند دخولهم المسجد مرة أخرى وجدوا الإمام يجلس في منتصف المسجد يرتل بعض آيات القرآن الكريم، كان رجلًا في أواخر الستينات من عمره، الشعر الأبيض يكسو لحيته وفروة رأسه، لكن لا توجد على وجهه علامات الشيخوخة التي تدل على عمره المتقدم، فاقتربوا منه وبدأ "أحمد" الحديث قائلًا:

- السلام عليكم

فنظر لهم بوجهه البشوش وقال:

- عليكم السلام ورحمة الله وبركاته، أهلًا بكم، تفضلوا

فجلست " عائشة" على يساره و"ليث" على يمينه و"أحمد" أمامه، ثم قال "أحمد":

- نريد أن نستفتيك في موضوعٍ ما
- كلي آذان صاغية لكم، تفضلوا

فأخذ "أحمد" نفس عميق ثم بدأ الحديث:

- هل العمليات الاستشهادية تجوز أم لا في موقفنا هذا؟

فابتسم الإمام وقال:

- اختلف العلماء في ذلك الأمر، هناك من يقول أن في حالتنا هذه يجب علينا أن نقوم بتلك العمليات لأنها الشيء الوحيد الذي في استطاعتنا، وستجعل اليهود يَرهَبوننا ويخشوننا، وليصل لهم أننا مازلنا ندافع عن أرضنا، و في هذه الحالة تعتبر جهادًا في سبيل الله، ونحتسب منفذها عند الله شهيدًا بإذن الله استنادًا على بعض الأحاديث والروايات، منها عن الرازي الشافعي رضى الله عنه (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الجنة، فقال له رجل من الأنصار: أرايت يا رسول الله إن قُتِلت صابرًا محتسبًا؟ قال: لك الجنة، فانغمس في جماعة العدو فقتلوه بين يدى

رسول الله)، وآخر (روى أن قومًا حاصروا حصنًا، فقاتل رجل حتى قُتِل، فقيل: ألقى بيده إلى التهلكة، فبلغ عمر بن الخطاب ذلك فقال : كذبوا، أليس يقول الله تعالى: (و من الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات الله).

كما ذكر نحو ذلك ابن تيمية في فتواه المشهورة في قتال التتار، مستدلًا بما روى مسلم في صحيحه عن النبي صلى الله عليه وسلم من قصة أصحاب الأخدود، وفيها: أن الغلام أمر بقتل نفسه؛ لأجل مصلحة ظهور الدين (حين طلب إليهم أن يرموه بالسهم ويقولون: باسم الله رب الغلام) ولهذا أجازوا الأئمة الأربعة أن ينغمس المسلم في صف الكفار، وإن غلب على ظنه أنهم يقتلونه، إذا كان في ذلك مصلحة للمسلمين.

وهناك بعض الروايات والأحاديث الأخرى ولكني لا أريد أن أطيل عليكم، والرأي الآخر يحرمها تحريمًا باتًا ويرى أنها قتل نفس ويعتبر منفذها منتحر مهما كانت الأسباب.

فقالت " عائشة":

- وماذا عن رأيك أنت ؟
- أنا أرى أن الرأي الصواب هو الرأي الوسط، وهو عدم الاستسلام للعدو ولكن مع الأخذ بالأسباب، إذا كان هناك فرصة واحد بالمائة للنجاة بعد تنفيذ العملية فعليك الاستفادة من الواحد بالمائة تلك، وتحاول أن تنجو، وإذا قتلك اليهود حينها فأنت شهيد بإذن الله، ولا يوجد شبهة على وفاتك

وبعد تلك الفتوى من الإمام زاد الهم كثيرًا على "أحمد" الذي على بُعد خطوات من فقد "عائشة" أيضًا، بينما ظل "ليث" مندهشًا مما يحدث، وابتسمت "عائشة" فرحًا بهذا الرأي الذي أراح قلبها وقالت:

- شكرًا لك كثيرًا
- لا شكر على واجب يا ابنتي

وعندما خرجوا من المسجد وقف "ليث" ينظر لهما ويقول:

- من سيفعل ذلك ؟

فردت " عائشة" بسعادة غامرة:

- أنا، سأفعل ذلك بعد بضعة أيام إن شاء الله

فخيم الصمت على "أحمد" و"ليث" تمامًا، قبل أن تتحدث " عائشة" ثانيةً قائلة:

- أريد أن أزور يافا وأفعل أشياء كثيرة في هذا الأسبوع قبل تنفيذ العملية، وهناك بعض الأمور التي سأوصيكم بها، ولكن ليس الآن، وأتمنى منكم أن لا تفسدا فرحتي بهذا الصمت

فهز "أحمد" رأسه وقال:

- لكن سوف تفعلين كما قال لنا الإمام، ستحاولين الهرب وليس تفجير نفسك

فابتسمت وقالت:

- **بالتأكيد إن شاء الله**

(١٣)

وفي طريق العودة أوقفتهم إحدى نقاط التفتيش الإسرائيلية، ظل "أحمد" ينظر إلى أحد الجنود اليهود بدهشة وحيرة، قبل أن ينادي على "عائشة" قائلًا:

- "عائشة"، انظري لذلك الجندي؟

وعندما نظرت تحولت ملامح وجهها إلى الدهشة أيضا لتنادي على "ليث" قائلة:

- "ليث"، "سيف الدين" حي

فالتفت إليها بسرعة ونظر إلى ذلك الجندي الذي يشبه "سيف الدين" تمامًا، يقف تائهًا شاردًا يحمل سلاح الصهاينة ويرتدي ملابسهم الحربية، فتحرك نحوه "أحمد" ليتأكد أكثر من شكوكه فنظر له وقال:

- من أنت؟

فنظر له ذلك الجندي ورد عليه بالعربية مما أزاد الشكوك قائلًا:

- أنا كوهين جندي يهودي
- أنت هنا منذ وقت طويل؟
- لا أعلم، ولا أتذكر شيئًا، ولكن كل ما أتذكره أنني كنت مصابًا بطلق ناري بالصدر وبعض الإصابات بالرأس، وعند إفاقتي أخبروني بذلك

- أخبروك بماذا؟

هنا التفت القائد للحديث الذي يدور بين أحد جنوده وذلك الشاب مبتور الساق، فتوجه نحوه وأمره بالرحيل بعد تفتيش السيارة، وعندما عاد "أحمد" إليهم أقسم بالله أن هذا "سيف الدين" ولكن لا يتذكرني ولا يتذكر شيئًا ويبدو عليه فاقد الذاكرة، مما زاد من دهشة " عائشة" التي أكدت أنه قُتِل أمامها، وظل "ليث" صامت حتى قال بالنهاية:

- هذا أخي، وسوف أعود إليه

فنظر له "أحمد" وقال:

- انتظر حتى نتأكد مئة بالمائة، وحينها سنرى ماذا سنفعل
- أنا متأكد، شعرتُ به، كان ينظر لي بقوة، عيناه كانت تخبرني بشيء
- اهدأ يا "ليث"، انتظر حتى نعود إلى المخيم

فهز "ليث" رأسه بالموافقة، بينما كانت "عائشة" تفكر وتتحدث مع ذاتها، من يكون ذلك الجندي؟ أيكون "سيف الدين" حقًا؟ أم خيالهم يصوِّر لهم ذلك بسبب اشتياقهم له، يا الله كن لنا عونًا وقدم لنا المساعدة لمعرفة الحقيقة، وعند عودتهم إلى المخيم اجتمعوا ثلاثتهم ليتناقشوا فيما حدث، بدأ "أحمد" الحديث قائلًا:

- يجب عليكِ أن تؤجلي العملية الآن، خصوصًا بعد تواجد "سيف الدين" بمكان العملية.
- لماذا هذا اليقين أنه هو وليس شخصًا يشبهه ؟!

- لأنه هو، وأنتِ تعلمين ذلك وأنا أيضًا، وسوف أمنعك بالقوة إن قررتِ فعل ذلك
- بالتأكيد لن أفعل، لكن يجب علينا أن نضع خطة لجلبه من هناك على الأقل
- ذلك ما أفكر به الآن

فقاطع "ليث" الحديث قائلًا:

- جلبه من أين؟ هل تعتقدون أننا نستطيع دخول مستعمرة يهودية لخطف أحد جنودهم بتلك السهولة؟

فرد "أحمد" عليه بعصبية:

- بكل تأكيد لا، سوف نتركه هناك ليصبح يهوديًا ويتم استغلاله وتهويده
- لم أقصد ذلك، ولكن تلك العملية صعبة للغاية
- نعلم ذلك، وإن لم يكن لديك الشجاعة الكافية لفعلها من الممكن أن تنتظر هنا مع المسنين

هنا انفجر "ليث" بوجه "أحمد" قائلا:

- لماذا تتحدث هكذا؟! أنا أقدِّم روحي فداءً لأخي، ولكن أطلب منك عدم التسرع ووضع خطة محكمة فقط

هنا تدخلت " عائشة" لتهدئة الأمور:

- "ليث" معه حق، وأنا أعلم من سيساعدنا في تلك المهمة

- من ؟
- بكل تأكيد حركة المقاومة

فهز "أحمد" رأسه وقال:

- هل لديكِ الثقة الكاملة بهم
- بكل تأكيد، وإن لم يكن لدي ثقة بهم لما انضممت إليهم إذًا، وكنتُ على وشك تنفيذ عملية مؤجلة الآن
- حسنًا، متى سنذهب إليهم ؟
- الاجتماعات دائمًا ما تكون ليلًا بإحدى بيوت القادة
- حسنًا سوف نذهب الليلة

فهزت " عائشة" رأسها بينما اتجه "أحمد" إلى "ليث" وربت على كتفه وقال:

- سوف تأتي معنا، وآسف على تعنيفي لك

فاكتفي "ليث" بهز رأسه، ثم ذهبوا لصلاة العصر ثم تحضير أنفسهم للاجتماع الليلي.

ذهبوا ليلًا للاجتماع مع قادة المقاومة، وعند دخولهم المنزل وجدوا ترحيبًا من كل المتواجدين، جميعهم رجال أشداء البنية، أعمارهم صغيرة لا تتعدى حاجز الأربعين عامًا، وبعد ما تم تقديم القهوة والشاي للضيوف بدأ "أحمد" في شرح الموقف كامل وطلب مساعدتهم، وطلب أيضًا تأجيل عملية " عائشة" لبضعة أيام، وبعد الإنصات رد عليه أحدهم قائلًا:

- وهل لديك خطة لفعل ذلك ؟

- بالطبع لدي خطة، وهي الدخول إلى المستعمرة التي يتواجد بها ليلًا بواسطة ملابس حربية يهودية، واختطافه والعودة به إلى المخيم.

فنظر له الرجل ثم أطلق ضحكات متتالية وظل ينظر لمن حوله ويتبادلون الضحكات ثم قال:

- خطة ضعيفة للغاية ونسبة فشلها تفوق ٩٩%، سوف نضع خطة أكثر أحكامًا وسنبلغك بها بعد بضعة أيام.
- لا أستطيع الانتظار لبضعة أيام.
- حسنًا، اذهب واحضره وحدك

فاستشاط "أحمد" غيظًا، ووقف ثم سحب عكازه الخشبي وخرج مسرعًا إلى الشارع، ومن خلفه "ليث" و" عائشة" لتهدئته، فوضع "ليث" يده على كتف "أحمد" ثم قال:

- اهدأ، لدينا متسع من الوقت، إذا كان الذي هناك أخي فهو بأمان الآن لأنه جندي يهودي فلا خوف عليه، لا تجعلنا نتصرف تصرفًا أحمق نندم عليه .

فأكدت " عائشة" على كلام "ليث" وقالت:

- "ليث" لديه حق بكل كلمة نطقها، لا تجعل مشاعرك تسيطر عليك وحكم عقلك قليلًا، فالحرب تحتاج إلى متسع من الوقت والتخطيط

نظر لهما "أحمد" وقال:

- أنا لا أملك شيئًا لخسارته بعد " فيروز" و"سيف الدين"، إن كان هناك أمل واحد بالمئة أن الذي رأيناه "سيف الدين"، فلدي استعداد أن أضحي بكل شيء من أجل استعادته، وهذا الأمل موجود وبنسبة تفوق ذلك.

فقاطعته " عائشة" قائلة:

- كلنا هكذا، ولكن لابد أن نفكر قليلًا

فقال "أحمد" في حزم:

- لا يوجد وقت للتفكير

ثم بدأ في السير مبتعدًا عنهم ببضعة أمتار، قبل أن يعاود الحديث ثانيةً بصوت عالٍ:

- في فجر الغد سوف أذهب لاسترجاع "سيف الدين"، إن أردتم أن تأتوا معي أهلًا بكم، وإن لم تريدوا فلن يغير من الأمر شيئًا.

ثم رحل باتجاه المخيم، بينما "ليث" و"عائشة" ظلوا ينظرون إلى بعضهم البعض في حيرة ودهشة وقلة حيلة.

* * *

وعند عودتهم إلى المخيم وجدوا "غسان" وزوجته قاموا بتحضير أغراضهم، ويقومون بتوديع كل المتواجدين استعدادًا للهجرة.

ليقف "أحمد" مندهشًا صامتًا، لم يحدثه أبوه سوى مرة واحدة في ذلك الموضوع منذ بضعة أيام، والآن يستعد للهجرة دون أن يخبره على الأقل فاقترب منه أبوه وقال:

- أعلم مدى صعوبة الحدث عليك، ولكن أنا وأمك أصبحنا غير قادرين على العيش في تلك الظروف، وكنتُ أريدك معنا ولكني أعلم أنك لن تترك فلسطين

ظل "أحمد" صامتًا لبضعة ثوانٍ ثم قال بثقل شديد:

- الله معكم، سوف أشتاق لكما، وأتمنى لكما السلامة والوصول لمبتغاكما

فاحتضن "غسان" ابنه وقال:

- ونحن أيضًا سوف نشتاق لك كثيرًا يا بني، وإن أردت أن تأتي لنا في أي وقت اذهب لصديقي سوف يساعدك على السفر، أنا أخبرته بكل شيء

ثم اقتربت منه أمه وهي تبكي على غير عادتها قائلة:

- والله لولا الظروف التي نمر بها وعدم قدرة أبيك على العمل، ما كنت تركتك وذهبت معه لدقيقة واحدة، اعتنِ بنفسك وبمن حولك وكن رجلًا كما أنت دائمًا

فاحتضنها "أحمد" وقال:

- لا تقلقي عليَّ يا أمي، اعتني أنتِ بنفسك وبأبي

فاكتفت بهز رأسها وحمل حقيبتها ورحلت هي و"غسان" إلى تشيلي لبداية حياة جديدة بعيدًا عن الحرب والذل والموت والخراب.

* * *

أعد "أحمد" أغراضه، سكينً، سلاحًا ناريًا، ووضعهم أسفل أشيائه داخل حقيبته، هنا استيقظ "ليث" ونظر إليه وقال:

- سوف آتي معك، لن أتركك وحيدًا

فقام "أحمد" بهز رأسه إشارة منه على رفضه وقال:

- سأذهب وحيدًا، ووصيتي لك إن لم أعد أن تحاول ثانيةً في استرجاعه
- لن أتركك

فنظر إليه "أحمد" واحتضنه وابتسم وقال:

- لا، أراك على خير بإذن الله

فأسقطت بعض الدموع من "ليث"، وهنا بدأ "أحمد" في شد أزره قائلًا:

- الرجال لدينا لا تبكي، أنا ذاهب للعودة بـ "سيف الدين"، وإن لم أعد فسوف أذهب للشهادة ولله وجنته، وهو ما نسعى له، أنت الآن الرجل هنا لحين عودتي أنا و"سيف الدين"، كل المتواجدين مسؤولون منك الآن.

اكتفى "ليث" بهز رأسه ومسح دموعه.

وعندما خرج "أحمد" وجد "عائشة" بانتظاره في الخارج، فنظر إليها وقال:

- أهلًا أهلًا، ما الذي أيقظك الآن ؟
- توديعك

قالتها بمزيج من الحزن والشجن والاشتياق، جعلت كل تلك الأحاسيس تتسرب داخله بكلمة واحده نطقتها، شعر بخطورة المهمة وبنسبة عدم عودته الكبيرة، وفقدانه لهؤلاء البشر الذين يعشقهم كاد أن يضعف في تلك اللحظة ويتراجع عن المهمة، ولكن سريعًا ما تذكر ما حدث معه من بتر ساقه وقتل خطيبته التي كانت الدنيا بالنسبة له وهجرة أبيه وأمه وتركه بسبب تلك الحرب، فاستجمع قواه ثانيةً وقال بابتسامة:

- لماذا ؟! هي ساعات قليلة وسوف أعود بـ "سيف الدين" بإذن الله
- أتمنى ذلك

ثم قامت باحتضانه وأجهشت في البكاء وقالت:

- أتمنى عودتك، لا أريد فقدانك بعد فقد " فيروز"، أنت كل شيء لي الآن

فربت على كتفها وقال:

- سأعود أنا وأخي من هناك، لا تبكي، فقط ادعي لي
- الله معك يا ولدي.

فابتسم هنا وتركها ورحل باتجاه المستوطنة اليهودية المتواجد بها "سيف الدين".

يقف الجندي الصهيوني في برج المراقبة فجرًا يحمي ويدافع عن مستعمرته من الفلسطينيين، ولكن تدور في رأسه بعض الأفكار الغريبة التي اجتاحت عقله منذ أن رأى الشابين الفلسطينيين، لماذا اقتربوا منه هكذا؟ ومن "سيف الدين" ذلك؟ يبدو أنهم يعلمون شيئًا عني وعن أصلي وأسرتي، أيعقل أنني من الممكن أن أكون فلسطينيًا بعد كل ذلك؟ لا لا، بالتأكيد لا أنا يهودي أدافع عن أرضي، وبالتأكيد أبي وأمي فُقدوا في اليوم الذي فقدت فيه ذاكرتي أثناء الحرب كما أخبروني، بالتأكيد بالتأكيد.

وأثناء ذلك الحوار الذي كان يجريه مع عقله لاحظ أحد الاشخاص يتلصص خلف الأشجار من بعيد، وبعد استخدامه لنظارته المكبرة وجد أنه الشاب صاحب القدم المبتورة الذي وقف معه ليلة أمس، فقام بتعمير سلاحه واتجه إليه من طريق خلفي حتى لا يشعر به ويفر هاربًا، وعند وصوله إليه صوب السلاح تجاهه وقال:

- من أنت؟ ولماذا جئت إلى هنا؟ وما هذا الذي تحمله؟

هنا ترك "أحمد" الحقيبة التي كان يحملها، وبدأ في الاستدارة لوجه الجندي ليجده "سيف الدين" فقال:

- "سيف الدين"، ألا تتذكرني؟ ألا تتذكر رفيق الدرب؟ أنا "أحمد "
- من "سيف الدين"؟ ومن "أحمد"؟ أنا جندي يهودي إسرائيلي من أصل أردني، ماذا يوجد بتلك الحقيبة؟ قم بفتحها الآن

فقام "أحمد" بالجلوس على ركبتيه وبدأ في فتح الحقيبة، ليخرج منها سلاحًا ناريًا وبعضًا من القنابل اليدوية، فأشار له الجندي بترك تلك الأشياء ووضع يده على رأسه، فرفض "أحمد" ذلك الأمر وبدأ يتحدث ثانيةً:

- أنت "سيف الدين"، وحدث لك حادثًا أفقدك الذاكرة، وأنت فلسطيني عربي مسلم، لكن اليهود استغلوا إصابتك وقاموا بتجنيدك، والدليل على صحة كلامي وجود إصبع زائد بقدمك اليسرى.

فنظر الجندي إلى قدمه، ولكنه لم يتذكر شيئًا، وهنا حاول "أحمد" الاقتراب منه، فتراجع الجندي وأطلق رصاصة من بندقيته على قدم "أحمد" الوحيدة، هنا سقط "أحمد" أرضًا وظل يصرخ من الألم، ولكن لم يغير ذلك الصوت الموجوع من الأمر شيئًا، فقام بتقييد يديه وقام بإبلاغ بعض من قيادات المستعمرة بقيامه بالقبض على إرهابي فلسطيني يحاول التسلل للداخل معه أسلحة وقنابل، وعندما أتى أحد القيادات ابتسم بوجه الجندي ثم ذهب إلى "أحمد" وركله وقال:

- لماذا تريد لنا الموت؟ نحن نريد السلام والحياة معكم بجزء صغير من الأرض، بيدي الآن أن اتركك تنزف كل دمائك وتفارق الحياة، ولكني لن أفعل ذلك، لأن الموت حياة لأمثالك، ولكن أن تحيا وتعذب في سجوننا هذا هو الموت الذي سيزورك في كل لحظة

لم يتجاوب "أحمد" مع الكلام وربما لم يكن ينصت لما يقال، كان يتألم يتألم فقط.

* * *

يجلس كل من "ليث" و" عائشة" داخل المخيم القلق يسيطر عليهما تمامًا، "أحمد" لم يعد، وقد مر أكثر من ست ساعات على ذهابه، ومع كل دقيقة تمر يزداد القلق والتوتر، وقف "ليث" وبعصبية شديدة ظل يركل الحائط قائلًا:

- كان يجب أن ينتظر حتى يتم وضع خطة والذهاب مع الحركة، كان يجب علينا منعه بالقوة، بكل تأكيد قُتِل أو قُبِض عليه، لماذا تركناه؟ لماذا؟ لماذا؟

ثم جلس أرضًا وظل يبكي بانهيار، بينما قامت "عائشة" بالجلوس بجواره وقامت باحتضانه وقالت:

- لم يكن لدينا شيء لفعله يا بني، ومن الواضح أننا سنفنى جميعًا شخصًا تلو الآخر، مسألة وقت فقط
- اللعنة على اليهود وكل من عاونهم
- تماسك يا بني، القادم أصعب

فقال "ليث" بعصبية:

- سوف أذهب لمقر الحركة الآن لمعرفة إذا كانوا وضعوا الخطة أم لا، الانتظار يقتلني، لن أنتظر أكثر من ذلك، هل ستأتي معي؟
- انتظر، مازال الاجتماع باقيًا على بدايته أكثر من سبع ساعات

فقام بارتداء حذائه وقال بجدية:

- سوف تأتين معي الآن، هيا بنا

وعند وصولهم إلى مقر الحركة، الجميع كان ينظر لهم نظرات مريبة، قبل أن يستقبلهم أحد المتطوعين قائلا:

- أهلا بكم، سوف يجتمع بكم الأستاذ أبو حديدة على انفراد

فقام "ليث" بهز رأسه قائلًا:

- هل يوجد مشكلة أو كارثة أو شيء من هذا القبيل ؟

فابتسم المتطوع وقال:

- لا، لا يوجد شيء إن شاء الله، لا تقلق
- أتمنى ذلك، لأن حياتنا أصبحت عبارة عن كوارث بها القليل من الحياة

فابتسم الرجل ابتسامة صفراء ولم يتحدث تمامًا حتى وصولهم إلى مدخل أحد المكاتب وقال:

- انتظروا في هذا المكتب حتى يأتي لكم الأستاذ" أبو حديدة "

فنظرت له " عائشة" بحيرة وقالت:

- ماذا يحدث ؟ يوجد شيء مريب

فبنفس الابتسامة المقلقة قال:

- بعد دقائق سوف تجلسون مع الأستاذ" أبو حديدة" وسيخبركم بكل شيء

فنظر "ليث" و" عائشة" لبعضهم البعض وقال "ليث":

- حسنًا، سوف ننتظره

وبعد دخولهم المكتب جاء "أبو حديدة" ليرحب بهم قائلًا:

- أهلا بكم، هل تريدون قهوة معي ؟

فرد "ليث" قائلًا:

- شكرًا لك، نريد معرفة ماذا يحدث، يوجد شيء مريب هنا

فنظر إلى " عائشة" وقال:

- حسنًا، سوف أخبركم بكل شيء الآن

فقالت " عائشة":

- كلي آذان صاغية

هنا شعر "ليث" أنه يهمش قليلًا، ولكن لم يعير انتباه لذلك التهميش ووضع قدمًا على قدم وبدأ في التركيز مع ذلك الرجل ليبدأ" أبو حديدة" حديثه قائلًا:

- لقد تم وضع الخطة، خطة الهجوم المسلح على المستعمرة، وليس خطة استرجاع ذلك الجندي الذي تدَّعون أنه فلسطيني

فبدأت ملامح وجه "ليث" بالتحول إلى العبوس قبل أن تنظر له "عائشة" وتشير له بالانتظار ثم قالت:

- لماذا تقول إننا ندّعي ؟! هل لديك دليل واحد ضدنا
- لم أقصد ذلك، ولكن محاولة الدخول إلى مستعمرة لجلب جندي صهيوني والخروج منها أمر مستحيل، و"أحمد" زميلكم قد تم القبض عليه هناك ومحتجز داخل المستعمرة، ومن ألقى القبض عليه الجندي الذي تدّعون أنه فلسطيني

فقال "ليث":

- من أين علمتم بذلك ؟

فضحك" أبو حديدة" وقال:

- لنا رجالنا في كل مكان

كان الخبر كالصاعقة عليهما، لم ينطق أحد منهم بأي كلمة ثانيةً، حتى كسر "أبو حديدة" الصمت الذي خيم على المكان ثانيةً قائلًا:

- الهجوم على المستعمرة الأسبوع القادم، إن كنتم تريدون المشاركة معنا أهلًا بكم بكل تأكيد

فقالت " عائشة":

- وما أهداف الهجوم ؟

فابتسم أبو حديدة وقال:

- سوف تعلمون كل شيء عند تأكيد مشاركتكم معنا، معكم مهلة للتفكير حتى التاسعة مساءً، اجتماع توزيع المهام ومعرفة كل شيء الساعة العاشرة
- حسنًا، سوف نخبرك ليلًا إن شاء الله، هيا بنا يا "ليث"

قاموا بمصافحة "أبو حديدة" ورحلوا ليتخذوا قرارًا معًا.

* * *

(١٤)

يجلس الجندي بمفرده في غرفته داخل المستعمرة بعد انتهاء فترة خدمته، تذكر حديث ذلك الفلسطيني معه، وأثناء خلوته تلك تذكر العلامة التي أخبره بها والتي تؤكد صحة حديثه، فنظر إلى قدمه سريعًا فاندهش عندما وجد إصبعًا زائدًا في قدمه كما أخبره ذلك الرجل، فظل يخفق قلبه بشدة ويتحدث مع ذاته، ما هذا؟! هل من الممكن أن أكون فلسطينيًا مسلمًا، ولي أسرة وحياة لا أعلمها؟ أم تلك لعبة من ذلك الرجل؟ ولكن كيف علم عدد أصابع قدمي؟ أنا صاحب القدم لم أكن أعلم عدد أصابعي، يجب أن أرى ذلك الرجل عاجلًا وليس أجلًا حتى أعلم منه كل شيء ويأكد ويبرهن لي أكثر من ذلك على صحة كلامه.

فنهض من جلسته سريعًا، واتجه نحو مكان احتجاز "أحمد" ليجد أحد الجنود يقف حراسة من الخارج، فذهب إليه وقال:

- كيف حال ذلك الكلب؟ لم يمت حتى الآن؟
- لا، تم استخراج الرصاصة من قدمه
- لا أعلم سر الإبقاء على هؤلاء الكلاب على قيد الحياة

بضحكة مكر قال:

- هكذا هم اليهود قلوبهم رحيمة

فضحك بقوة قائلًا:

- افتح لي ذلك الباب حتى أريه تلك الرحمة
- غير مسموح بدخول أحد تمامًا، هناك تعليمات صارمة
- خمس دقائق فقط، سوف ألقنه درسًا لن ينساه طوال حياته حتى لا يتجرأ على أسياده مرة أخرى

فابتسم الجندي وفتح له الباب وقال:

- خمس دقائق فقط

فقال بخفة ظل:

- بكل تأكيد

وعند دخوله وجد "أحمد" نائمًا على أحد السرائر الحديدية ومقيدًا من أطرافه بسلاسل حديدية متصلة بالأرض، فشعر أنه رأى ذلك المشهد مسبقًا، أو أنه قد حدث ذلك له هو شخصيًا، ولكن لا يتذكر أي تفاصيل تمامًا، فأغلق عينيه وشعر بدوار خفيف قبل أن يستجمع قواه ثانيةً، واقترب إلى "أحمد" وبدأ ينظر إليه، كان يبدو عليه الإرهاق والإعياء الشديدان .

فشعر "أحمد" بحركة جانبه، وعندما نظر وجد "سيف الدين" قال بصوت متعب للغاية:

- هل رأيت قدمك؟

فأشار الجندي بنعم وقال:

- لكن ذلك ليس دليلًا كافيًا على صحة كلامك

فضحك "أحمد" وقال:

- لا أتذكر علامات جسدية أخرى، ولكني أقسم لك أنك "سيف الدين ياسين"، فلسطيني، مسلم، وأنا "أحمد" صديقك، وزوجتك "أميرة"، وأخوتك "صبا" و"ليث" لاعب كرة القدم، ألا تتذكر أي شيء من ذلك ؟

فجلس الجندي ووضع وجهه بين كفيه وظل يحاول مرارًا وتكرارًا أن يتذكر أي شيء ولكن لم يتذكر أي شيء تمامًا.

ولكن اسم "ليث" كان له رنين مختلف على أذنيه فقال:

- حدثني عن "ليث "
- "ليث" أخوك لاعب كرة قدم ذهب إلى مصر ليحترف كرة القدم هناك، وأنت كنت أكبر الداعمين له، حتى استطاع أن يذهب إلى مصر ويحقق جزءًا من حلمه

فظل الجندي يضرب على رأسه بيده قائلًا:

- لا أتذكر شيئًا، لا أتذكر شيئًا

ثم وقف وركل قدم "أحمد" في مكان الإصابة مما جعله يصرخ من الألم ثم قال:

- أنت لا تعرفني، وأنا لست "سيف الدين"، أنا كوهين الإسرائيلي

وأخذ يركض خارج الغرفة متجهًا إلى غرفته ليبكي على حاله وعلى عدم تذكره أي شيء، وظهور ذلك الرجل الذي جعله في حيرة من أمره، هل هو "سيف

الدين" الفلسطيني المسلم؟ أم هو كوهين الإسرائيلي؟ بينما ظل "أحمد" يتألم ويصرخ نتيجة الركلة، وظل حارس غرفته يضحك فرحًا في صرخات ألم ذلك الشاب العربي.

* * *

باقٍ ساعة واحدة على الاجتماع ومازال النقاش دائرًا بين " عائشة" و"ليث"، لم يتخذوا قرارًا بعد بالمشاركة من عدمها، أو محاولة إقناع الحركة بتأجيل العملية لمحاولة إنقاذ "سيف الدين".

فقال "ليث" بحدة:

- أنا اتخذتُ قرارًا
- ما هو ذلك القرار؟!
- سوف نذهب إلى العملية معهم، "أحمد" إن كان حيًا فهو يحتاج مساعدتنا الآن قبل الغد، وأثناء العملية نحاول إنقاذ "سيف الدين" بأي طريقة من الطرق دون اتخاذ موافقة القادة أو علمهم بشيء
- وما هي تلك الطرق التي يمكننا إنقاذه بها؟
- لا أعلم، ما زلت أفكر، هل يمكننا تخديره حتى لا يقاوم؟!

فنظرت "عائشة" للأعلى وحكت ذقنها وقالت:

- فكرة تبدو جيدة وهي الأقرب للتنفيذ
- حسنًا، توكلنا على الله

فابتسمت "عائشة" وقالت:

- وليس لنا غيره، هيا بنا إلى الاجتماع
- حسنًا، هيا بنا

وعند وصولهم إلى الاجتماع وجدا ترحيبًا كبير من كل المتواجدين على عكس المرة السابقة، ووجدا عددًا ضخمًا، يبدو أنها سوف تكون عملية قوية سيتحاكى بها الجميع فيما بعد.

بدأ" أبو حديدة" الحديث مع كل المتواجدين قائلًا:

- السلام عليكم

ليرد الجميع السلام في صوت واحد، مما أزاد الحماس عند كل المتواجدين ثم استكمل حديثه ثانيةً قائلًا:

- العملية ستنفذ في الغد، هدفها استرجاع كل الأسرى المتواجدين بتلك المستعمرة، والفوز بأكبر عدد من الغنائم كالأسلحة والأسرى اليهود، وتذكروا جميعكم أن من سيلقى الله في الغد فهو شهيد بإذن الله، ومن سيعود سيصبح بطلًا تتحاكى به كل البشر، لا يوجد خاسر في الغد سوى اليهود بإذن الله.

ثم بدأ في تقسيم الأدوار والمهمات وشرح خطة الهجوم على المستعمرة، وكيفية الدخول والخروج منها، واستمر الاجتماع لمدة ثلاث ساعات متواصلة، وأنهى حديثه قائلًا:

- هم معهم الأموال والأسلحة والأمريكان والإنجليز، ونحن معنا الله وكفى به وكيلًا، وسوف ينصرنا الله كما وعدنا سبحانه وتعالى، بسم الله الرحمن

الرحيم {فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ والَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا اليَوْمَ بِجَالُوتَ وجُنُودِهِ قَالَ الَذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بإذن اللَّهِ واللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ} صدق الله العظيم، أراكم غدًا في أرض المعركة بإذن الله على خير، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

* * *

يجلس كابتن "صبري" بشرفة شقته بالسيدة زينب وتجلس بجواره زوجته "دنيا" يتناولان قهوة الصباح، فأمسك "صبري" بيديها وقال:

- هل تعلمي أنكِ أفضل شيء حدث لي في حياتي ؟!

فنظرت له وابتسمت ثم قامت بإخراج لسانها وقالت:

- لا، لا أعلم

فضحك بصوت عالٍ وقال:

- حسنًا، انظري لعيني حتى تعلمي

فنظرت لعينه وقالت:

- أحبك

فابتسم وقبَّل يديها وقال:

- وأنا أيضًا، أريد التحدث معك بموضوع مهم

فضحكت بقوة وقالت:

- كنتُ أعلم أن كل تلك الرومانسية وراءها مطالب
- بكل تأكيد لا، وإذا كنتِ ترين ذلك فلن أتحدث تمامًا
- أنا أمزح فقط، لم أقصد شيئًا، اعتذار رسمي مني لك

فابتسم وقال:

- تقبلته
- ما هو الموضوع المهم ؟!
- أنتِ تعلمين جيدًا كم أحبك ولا أستطيع العيش بدونك، ولذلك أريد زيارة فلسطين وأريدك معي

فنظرت له واتسعت حدقة عينيها وقالت بنبرة صوت حادة:

- لماذا ؟!
- تريدين الصدق ؟!
- بكل تأكيد
- اشتقتُ لأرضي ولأهلي وأصدقائي ول "ليث"، سوف أقوم بمحاولة إقناعه بالعودة إلى مصر مرة أخرى
- وإن قلتُ لك لا لن اذهب معك
- لن تقولي ذلك، وإن حدث لن أذهب بدونك
- هزمتني تلك المرة، ومتى موعد السفر ؟!

فتحول وجهه هنا للبشاشة والسعادة العارمة وقال:

- غدًا إن شاء الله

فوقفت وقالت:

- إن شاء الله، سأذهب لتحضير أغراض السفر

فقام بإمساكها وقبَّلها قبلة طويلة المدى ونظر إلى عينيها وقال:

- رزقني الله بأجمل امرأة في الكون

فقامت باحتضانه بقوة ثم ذهبت لتحضير أغراضها وأغراض زوجها

(١٥)

سهرة عائلية داخل المخيم، يلتف الجميع حول "ياسين" الراقد في فراشه منذ عدة أشهر، مما أزاد عليه المرض وأصبح وجهه يحمل الكثير من علامات الشيخوخة، وجسده به الكثير من قرح الفراش، يتوقع الجميع وفاته في أي لحظة من اللحظات.

وضع "ليث" مقعدًا بجانب والده، وبدأ في الحديث معه بصوت خافت للغاية، ويبدو أنه يخبره بوجود "سيف الدين" على قيد الحياة، فتدخلت " عائشة" لقطع الحديث الدائر بينهما خوفًا من تحدث "ليث" عن أي شيء يخص معركة الغد، قائلة بابتسامة مرتبكة:

- شاركنا الحديث معكم يا "ليث"

فنظر لها وقام برفع حاجبه دلالةً عن عدم رضائه عن قطع الحديث وقال:

- أسرار عائلية، لا يصح مشاركتها مع العامة

فقامت بركله وغضبت وقالت:

- أصبحت من العامة الآن ؟!

فضحك كل المتواجدين بصوت عالٍ للغاية ثم قال "ياسين" بصوت متعب:

- يمزح معك يا "عائشة" بكل تأكيد، أنتِ بمثابة أمه ويمزح معك كما كان يمزح معها، وكان يخبرني بالجندي شبيه "سيف الدين" ليس أكثر

فابتسمت " عائشة" وقالت:

- أعلم أنه يمزح فقط، وتلك المكانة فخر لي بكل تأكيد، "حورية" مثال للأمانة والشرف والخلق والدين رحمها الله

فترحم عليها كل المتواجدين قبل أن يفاجئهم صوت من خارج الخيمة يقول:

- السلام عليكم، هل من أحد هنا ؟!

فاندهش "ليث" بسبب الصوت القريب للغاية من صوت كابتن "صبري" قبل أن يتجه مسرعًا لمدخل الخيمة، ليجده كابتن "صبري" بالفعل، وكانت الصاعقة بالنسبة له عندما وجد معه "دنيا"، فنظر له وقال باندهاش:

- عليكم السلام، ماذا تفعل هنا ؟

فغضب "صبري" كثيرًا من مقابلة "ليث" الجافة التي كان لا يتوقعها، ولكن حاول السيطرة على ذلك الغضب وقال:

- هل أستاذ "ياسين" هنا ؟
- ماذا تريد منه ؟
- من الصعب إبلاغك، أخبره بوجودي

فتحرك "ليث" من أمام المدخل وأشار لـ "صبري" وزوجته بالدخول، فسحب "صبري" "دنيا" من يدها واتجه للداخل وقال:

- السلام عليكم جميعًا

فرد الجميع السلام ثم قال "ياسين":

- أهلًا بك يا كابتن "صبري"، كيف حالك؟!
- الحمد لله بخير، تزوجتُ من مصر واستقريتُ هناك بسبب ظروف الحرب
- ألف مبروك لك يا كابتن، وما سبب تلك الزيارة المفاجئة؟!
- جئتُ لزيارة أصدقائي وأرضي

ثم وقف من المقعد الذي جلس عليه وقال:

- لكن إن كان وجودي غير مرحب به هنا سوف أرحل

وسحب "دنيا" من يديها واتجه نحو الخارج، قبل أن يقف "ليث" أمامه وقال:

- نحن نعلم الأصول، ولا نقصد ذلك أبدًا، أهلًا بك يا كابتن

فجلس "صبري" ثانيةً، ولكن تلك المرة جلس صامتًا دون أن يتحدث تمامًا، كان يتحدث داخليًا فقط مع نفسه، هل يرحل أم يبقى هنا بعد ذلك الاستقبال الجاف؟

وفي ظل الصمت الذي خيم على المكان، قطع "ليث" ذلك الصمت قائلًا:

- غدًا سوف يحدث هجوم قوي من حركة المقاومة على إحدى المستعمرات

هنا تغيرت ملامح وجه "عائشة" وظهر عليها الرعب، فتلك معلومات سرية ولا يجب على أحد علمها فقالت وحدقة عيناها متسعة:

- ومن أين علمت تلك المعلومات؟!

فنظر "ليث" لكابتن "صبري" وبمنتهى الهدوء قال:

- نحن عائلة واحدة يا "عائشة"، ويجب أن يعلم الجميع ما نحن مقبلون عليه

هنا وضعت "عائشة" وجهها بين كفيها والتزمت الصمت تمامًا، قبل أن يستكمل "ليث" حديثه قائلًا:

- سوف أشارك أنا و"عائشة" في تلك العملية بإذن الله

فساد الصمت تمامًا على المكان لثواني قبل أن يتحدث "ياسين" قائلًا:

- وفقك الله يا بني

فقام "ليث" من مقعده وقبَّل رأس أبيه، واتجه للخارج وخلفه كابتن "صبري" قائلًا:

- "ليث"، يا "ليث"، انتظر

فوقف "ليث" ثم استدار له قائلًا:

- ماذا تريد ؟! ولماذا جئت ؟! أريد معرفة السبب الرئيسي من وراء ظهورك في تلك اللحظة
- جئتُ لإقناعك بالعودة معي، الناس تشتاق لك في مصر ولمهارتك، الفريق كله بحاجة إليك

فضحك "ليث" بصوت عالٍ للغاية جعل كل المارة ينظرون له ثم قال:

- لم أرى أتفه منك، أبي يحتضر وأمي وأختي في ذمة الله، وأخي الكبير فاقد الذاكرة ومجند لدى اليهود، وأنت تقول لي كرة ونادي وفريق، عد من حيث أتيت

صمت "صبري" تمامًا، عجز عن الرد، ظل ينظر إلى "ليث" فقط لمدة دقيقة كاملة ثم قال:

- أنا آسف يا "ليث"

ثم عاد إلى المخيم ورحل "ليث" بعيدًا إلى البحر ليشكي له همه وحاله وكل ما بداخله كما علَّمه قدوته "سيف الدين ."

* * *

استلقى "ليث" على رمال البحر ليلًا ينظر للنجوم ويستمع لصوت الأمواج المتضاربة بالصخور.

يفكر ماذا سيحدث غدًا، من سيستشهد غدًا؟ هو أم " عائشة" أم "أحمد" المعتقل؟ وماذا عن ذلك الجندي؟ هل هو "سيف الدين" أم لا؟ وماذا

سيفعل إذا حاول قتله في المعركة؟ سيدافع عن نفسه أم سيقتل أخاه، وأبوه الذي يحتضر.

يا الله، لماذا كل تلك المشاكل والأزمات؟ هل خلقتني لأشقى وأُعذَّب؟ أستغفر الله العظيم من كل ذنبٍ عظيم، الحمد لله، راضٍ بالبلاء والضراء قبل السراء يا الله، اللهم قدِّر لي الخير، اللهم أرح قلبي وعقلي وردني إليك ردًا جميلًا .

ظل سارحًا في السماء يناجي ويدعو الله حتى ذهب إلى الموت المؤقت، وغفل على صوت البحر وأضواء النجوم.

* * *

ظل جميع أفراد الأسرة مستيقظين حتى الصباح لتوديع " عائشة" و"ليث"، لا أحد يعلم ما سوف يحدث في تلك العملية، بدأوا في تناول الفطور معًا، وعند الانتهاء ذهب "ليث" إلى أبيه ليودعه قائلًا:

- سوف نرحل الآن يا أبي، ألا تريد شيئًا مني قبل الذهاب؟!

فابتسم "ياسين" بوجهه وأمسك بيده وقال:

- أريد منك أن تعود منتصرًا أو شهيدًا، أرضك هي عرضك، أعلم مدى الصعاب التي ستواجهها، ولكن الله معك وسينصرك، وأنت في كل الأحوال منتصر، أحبك يا بني، وسأظل أفتخر بك هنا وفي الجنة بإذن الله

أشعل ذلك الحديث الحماس داخل "ليث"، فقام بتقبيل رأس والده وابتسم وقال:

- سأدافع بآخر نفس لدي عن تلك الأرض لا تقلق، ثم أنا الفخور بكونك أبي، أحبك يا أبي

ثم قاموا باحتضان بعضهم البعض، واتجه "ليث" نحو الخارج بصحبة "عائشة" قبل أن يفاجئه صوت من الخلف يقول:

- "ليث"، لماذا لم تودعنا؟

فنظر لـ "عائشة" وقام برفع أحد حاجبيه علامة منه على عدم رضائه، ثم نظر للخلف وقال:

- آسف، تفكيري منصب في شيء آخر غير الوداع، أراك على خير يا كابتن "صبري"

فقام "صبري" من مقعده وقام باحتضانه وقال:

- أراك على خير يا بني

فابتسم "ليث" بوجهه لأول مرة منذ مجيئه وقال:

- إن شاء الله

فابتسم كابتن "صبري" أيضًا ابتسامة رضا، وغادر "ليث" و" عائشة" المخيم متجهين إلى مقر الحركة، ثم منه يتجه كل فرد لإنجاز مهمته بالعميلة.

(١٦)

تم توزيع " عائشة" و"ليث" في مجموعة الاستيلاء على الغنائم وفك سراح الأسرى، وهي الخطوة الثانية في العملية بعد الهجوم وتقليص عدد اليهود بالمستعمرة، وهي خطوة مترتبة على نجاح الخطوة الأولى.

يقفون أصحاب الجزء الثاني من العملية على بُعد كيلو من المستعمرة بانتظار الإشارة للهجوم والقيام بدورهم أو الانسحاب، يقف "ليث" بجانب "عائشة" ملثم الوجه بالشال الفلسطيني كما حال "عائشة"، كل منهم يحمل سلاح للدفاع عن نفسه في حال فشل الهجوم، وأثناء الانتظار نظر "ليث" "لعائشة" وقال:

- هل سيوفقنا الله ؟!

قالت " عائشة" بصوت به الكثير من الحماس:

- بكل تأكيد سيوفقنا، مشاركتنا تلك توفيق من الله

ثم ربتت على كتفه واستكملت الحديث قائلة:

- لا أجيد استخدام ذلك السلاح جيدًا، فساعات التدريب كانت محدودة للغاية
- وأنا أيضًا مثلك، وأعتقد لذلك وضعونا هنا في تلك المهمة

- نعم بكل تأكيد، إن وجدت "سيف الدين" قبلي فحاوِل أن تعطيه حقنة المخدر التي بحوزتك وجلبه أسيرٍ حتى نعود إلى ديارنا ونرى ما سيحدث بعد ذلك

فضحك ضحكة بها الكثير من السخرية ثم قال:

- إن وجدتِه حيًا، قلبي يقول بأني لن أعود به
- سنفعل ما بوسعنا، وما يريده الله سوف يحدث
- إن شاء الله الخير

فابتسمت وقالت:

- إن شاء الله، كف عن الحديث، أريد إراحة رأسي قليلًا قبل الهجوم
- حسنًا، ولكن لدي سؤال تافه أخير

فضحكت بصوت مرتفع للغاية جعل الجميع ينظر لها فقال "ليث":

- سيقيمون علينا الحد بتلك الضحكة

فضحكت ثانيةً وشاركها هو أيضًا تلك المرة، قبل أن تعاود الحديث ثانيةً قائلة:

- كفى ضحكًا، ما السؤال؟
- من أين أتت الحركة بتلك الأسلحة؟
- يقال إنها مساعدات مصرية للمقاومة هنا بفلسطين بعد الهزيمة في حرب ٤٨

- أتمنى ذلك
- لا تتمني؛ لأنها كذلك

فاكتفى تلك المرة بالابتسامة، ثم صمت كل منهما لانتظار الإشارة بين لحظة والأخرى لبدء مهمتهم .

وعندما أتت إليهم الإشارة عن طريق الأعيرة النارية تحركوا باتجاه المستعمرة بواسطة بعض السيارات، وعند وصولهم وجدوا الحركة مسيطرة على أجزاء كبيرة من المستعمرة ماعدا مكان واحد يوجد به بعض الجنود اليهود يقومون منه بتبادل الأعيرة النارية مع أفراد الحركة، وذلك المكان هو مكان احتجاز الفلسطينيين المعتقلين.

توجهت القوة التي بها " عائشة" و"ليث" باتجاه غرف السجن لمحاولة القضاء على هؤلاء الجنود اليهود وتحرير المعتقلين، تم القضاء بالفعل على كل الجنود الواقفين على أسطح المبنى، ثم تمت الإشارة لـ "ليث" و"عائشة" وشاب آخر معهم لاقتحام المبنى، وإخراج جميع الفلسطينيين المتواجدين.

قال الشاب في جدية وحماس وقوة:

- سوف أقوم بتحرير جميع المتواجدين بهذا الطابق، اذهب أنت وهي للطابق العلوي

فهز "ليث" رأسه بالموافقة، واتجه هو و"عائشة" للطابق الثاني، المبنى كان خاليًا تمامًا من جميع الجنود والضباط اليهود، قاموا بالفعل بتحرير أسر جميع من كانوا في الغرف، ولكن لم يجدوا "أحمد" حتى الآن، مازال هناك

غرفة واحدة اتجه نحوها "ليث" بمفرده، بينما ذهبت " عائشة" للطابق السفلي لترى "أحمد" هناك أم لا.

قام بكسر باب الغرفة، ولكن وجد ما كان لا يتمناه، وجد مشهدًا شل تفكيره لثواني قبل أن يستجمع قواه ثانيةً ويقول:

- سيف! ماذا تفعل بـ "أحمد"؟

فنظر له الجندي اليهودي الذي كان يضع السلاح على رأس "أحمد" لأخذه رهينة لتسهيل خروجه دون أن يعترض طريقه أحد وقال بعصبية شديدة وانفعال:

- من "سيف الدين" ذلك؟! أنا كوهين اليهودي، ضع هذا السلاح أرضًا حتى لا أقتل ذلك الشخص

فترك "ليث" السلاح أرضًا وقال:

- تركته، ماذا أفعل الآن؟
- اجلب لي ذلك الكرسي المتحرك لوضع ذلك البهيم عليه

فذهب "ليث" وجلب الكرسي وجلس عليه "أحمد"، ثم عاود الجندي ثانية الكلام قائلًا:

- ضع يدك على رأسك وأعطني ظهرك وسر أمامي

ففعل "ليث" كل ذلك، وأثناء السير والاتجاه للخارج قام "أحمد" بالنداء على "ليث" بأعلى صوت، ثم استخدم يداه في رفع جسده من على الكرسي،

وقام بإسقاط السلاح من يد الجندي بواسطة رأسه، وعند التفاف "ليث" وجد "سيف الدين" أخاه يخنق "أحمد" صديق عمره، فأخذ "ليث" السلاح الساقط أرضًا وبدأ في تهديد الجندي قائلًا:

- اتركه حتى لا أقتلك

ولكن لم يلتفت له أبدًا، وبدأ "أحمد" في إخراج بعض من الإفرازات من فمه تدل على أنه يحتضر .

عندما رأى "ليث" ذلك المشهد لم يشعر بنفسه إلا عندما استقرت إحدى رصاصات سلاحه بصدر ذلك الجندي، ثم التوجه سريعًا نحو "أحمد" للاطمئنان عليه، فنظر له "أحمد" وبصوت مخنوق ومنهك للغاية قال:

- لماذا قتلته؟ لماذا؟ هذا "سيف الدين" أخوك، والله الذي لا إله إلا هو، هو "سيف الدين"

فنظر له "ليث" قال بقوة وصرامة:

- "سيف الدين" أخي استُشهد منذ ذلك اليوم الذي قُتِل فيه الجنود اليهود، ذلك جسده فقط، ولكن روحه فارقت الحياة منذ أكثر من سنتين

ثم سالت الدموع من عينيه وقال:

- ولكن أنت روح وجسد متواجدان معنا، فكان يجب عليَّ التخلص من الشخص صاحب الجسد فقط

فربت "أحمد" على كتفه ثم احتضنه في صمت يقطعه بعد عدة ثوانٍ قائلًا:

- لابد أن نأخذ جثته معنا لدفنها بالقرب منا

فحرك "ليث" رأسه بالموافقة وقال بصوت مغمغم بالبكاء:

- بكل تأكيد، سوف أجلب "عائشة" والشاب من الأسفل لحمله معي وانتظر أنت هنا على كرسيك حتى تأتي "عائشة" لمساعدتك.

فهز "أحمد" رأسه وانتظر على كرسيه ينظر نظرات وداع بها الكثير من الحسرة والندم على فراق أعز صديق وأخ وقدوة كان يقتدي بها أمام الجميع.

* * *

لم يفارق "ليث" جثمان أخيه طوال الطريق، لم تفارق الدموع عينيه، لم يقف عقله أبدًا عن التفكير بماذا سيقول لأبيه، قتلت أخي وقادم بجثمانه لدفنه، هل سيتفهم الموقف وما حدث؟ وأن ذلك الشخص لم يكن "سيف الدين" بل مجرد شخص مقترض جسده؟ هل كان عليَّ تركه يقتل "أحمد" ثم يقتلني؟ يا الله، ما هذا الاختبار؟ يا الله، خذني إليك، أصبحت غير قادر على كل ذلك.

أثناء ذلك التفكير العميق قامت " عائشة" بالاقتراب منه وربتت على كتفه وقالت:

- هون على نفسك يا بني، كلنا راحلون ولن يبقى أحد عليها

فنظر لها "ليث" وبابتسامة مكسورة قال:

- أريد الموت أكثر من أي وقت مضى
- موت ؟! هل تعلم أنك رجل العائلة الآن، "أحمد" أصبح غير قادر على العمل، أبوك كما تعلم، عم " أمين" رجل كبير وغير قادر على العمل أيضًا، هل ستتركنا أنا و"أميرة" والأطفال "يافا" و"سيف الدين" وحدنا في تلك الدنيا لليهود ؟!

فوضع وجهه بين كفيه وزادت نبرات بكائه هنا دون أن ينطق أي كلمة، فقامت "عائشة" باحتضانه وقالت:

- أولاد أخيك بحاجة إليك، زوجة أخيك بحاجة إليك، أمك بحاجة إليك

فنظر لها بعينه شديدة الاحمرار من البكاء وقال:

- أمي ؟

فابتسمت وقالت:

- نعم، أنا

فابتسم ابتسامة لم تخفِ الحزن وقال:

- سوف أفعل كل ما بوسعي من أجلكم

فاحتضنته "عائشة" وقبَّلت رأسه وعاد الصمت إلى السيارة ثانيةً.

وعند الوصول إلى المخيم ونزولهم من السيارة وجدوا عم "أمين" يقف على مدخل الخيمة بوجه مرتبك، وزاد ذلك الارتباك عندما رأى "ليث" قادمًا

عليه، فأدار وجهه وتوجه إلى الداخل سريعًا وخلفه "ليث"، ليجد أباه نائمًا كعادته على سريره، ولكن تلك المرة دون وجود للشهيق والزفير، توجد أعينًا مفتوحة ولكن لا ترى، جسدًا فقط دون روح .

فنظر "ليث" إلى أبيه ثم إلى عم " أمين" قائلًا:

- ماذا به؟ أأذهب لجلب الطبيب؟

فأجهش عم "أمين" بالبكاء دون أن يتحدث وذهب باتجاهه لاحتضانه، قبل أن يعاود "ليث" الحديث ثانيةً قائلًا:

- لماذا تبكي؟ أبي بصحة جيدة، سوف أذهب سريعًا لجلب طبيب

فزادت نبرات البكاء لدى عم "أمين"، وقام كابتن "صبري" بإمساك "ليث" من يده قائلًا:

- أبوك توفاه الله

فظل يضحك "ليث" ضحكًا هيستيريًا قائلًا:

- هل أنتم تمزحون معي؟

ليؤكد عم "أمين" المعلومة قائلًا:

- إنا لله وإنا إليه راجعون يا بني، البلاء شديد، ولكن أبوك كان يُعذَّب كل يوم بسبب مرضه، البقاء لله

فاستمر "ليث" في ضحكه الهيستيري حتى سقط على ركبتيه، وتحول الضحك الهيستيري إلى بكاء هيستيري، بكاء أشبه بنوبات الصرع والجنون، لم ينتهِ ذلك البكاء إلا عندما خارت قواه وسقط أرضًا مغشيًا عليه.

* * *

(١٧)

عندما استيقظ "ليث" وجد نفسه داخل خيمة النساء نائمًا على أريكة إحداهن، يوجد بيده أحد المحاليل الطبية، فقام بالنداء على "عائشة"، لتلبي "عائشة" النداء وتأتي إليه مسرعة، لينظر لها ويقول:

- أريد إزالة ذلك المحلول للذهاب لدفن والدي وأخي
- لكن والدك وأخيك ذهبوا إلى مثواهم الأخير منذ ثلاثة أيام، وأنت كنت فاقد الوعي طوال تلك المدة.

فوضع "ليث" وجهه بين كفيه وظل يردد كلمةً واحدة:

- يا الله، يا الله، يا الله

فاحتضنته وقالت:

- أعلم مدى صعوبة كل ما تمر به في ذلك السن المبكر، ولكن ذلك قدر الله، عندما استشهدت "فيروز" كنت أقول للناس دائمًا أنني سعيدة لها، ولكن بداخلي كانت توجد نيران تأكل في صدري، حزن لم أحزنه يومًا، ولكن لم يشعر به أحد ومازال مستمرًا ولن يزول أبدًا، ولكن انظر إلى تلك اللافتة التي على الحائط أعلاك.

عندما نظر "ليث" وجد لافتة بحجم متر في متر، مكتوب أعلاها الهدف الأساسي من الحياة، وفي منتصفها دائرة بداخلها كلمة (الجنة)، وحول

الدائرة أسهم نهايتها داخل الدائرة مكتوب عليها، الصلاة، الصوم، الاستغفار، الصلاة على النبي محمد، الصدقة، الصدق، الجهاد في سبيل الله والوطن، الاستشهاد.

وعندما انتهى من قراءتها قال " لعائشة":

- وما فائدة تلك اللوحة؟

فتنهدت بقوة وقالت:

- عندما يغمرني الحزن بسبب فقدان شيء غالٍ في الدنيا، اتجه سريعًا إلى هنا وأظل انظر إلى تلك اللافتة، لتذكرني بأن هدفي الأساسي هو الجنة، وأن "فيروز" هناك الآن بعد استشهادها، فهي حققت هدفها الأساسي من الحياة فيرتاحُ بالي ولو قليلًا، وأعود ثانيةً لتلك المهام التي ترسلني إلى الجنة وابنتي، وذلك الحديث ينطبق على أبيك وأخيك أيضًا إن شاء الله، فلا تحزن فهم في مكان أفضل، حققوا مبتغاهم هنا، وعليك الآن قضاء مهامك تجاه الله ليحقق لك مبتغاك ويرسلك إليهم بعد عمرٍ به البركة والصحة إن شاء الله .

فنظر لها وارتسمت على شفاه الابتسامة وقال:

- أنتِ جميلة إلى أقصى الحدود يا "عائشة"

فربتت على كتفه وقالت:

- لستُ أجمل منك يا بني، سوف أتركك ترتاح قليلًا حتى ينتهي ذلك المحلول، وليلًا سوف تأخذ عزاء والدك وأخيك
- حسنًا، إن شاء الله

ثم عاد ثانيةً للاستلقاء على ظهره ولكن تلك المرة كانت عيناه مع لافتة "عائشة" لم تتركها أبدًا.

* * *

يقف "ليث" على مدخل سرادق العزاء وبجواره عم "أمين" وكابتن "صبري" وبجانبهم "أحمد" جالس على كرسيه المتحرك، جاءت أعداد غفيرة لتقديم واجب العزاء في "ياسين" و "سيف الدين" بسبب سمعتهم الطيبة وحسن معاملتهم مع الناس.

وبعد انتهاء العزاء الذي استمر لقرابة الخمس ساعات، طلب كابتن "صبري" من "ليث" الحديث معه على انفراد في بعض الاشياء المهمة، فوافق "ليث" على الفور وذهب معه إلى الشاطئ للحديث هناك.

فجلسا على مقعدين أمام البحر مباشرةً، ثم بدأ "ليث" الحديث قائلًا:

- هذا المكان الأقرب إلى قلبي دائمًا منذ أن جئت إلى هنا، اتخذ فيه قراراتي، وأعاتب به نفسي، وأناجي فيه الله

فقال "صبري" وهو يستنشق هواء البحر الممتع:

- فلسطين كلها جميلة، وتسكن في القلب

فهز "ليث" رأسه وقال:

- بالتأكيد، بالتأكيد

فمد "صبري" قدميه أمامه ووضع رأسه على أعلى ظهر المقعد ونظر إلى السماء وقال:

- الأهم الآن عليك أن تعود معي إلى مصر أنت و" عائشة" وعم " أمين" وزوجته و"أميرة" والأولاد
- مصر ؟ أولًا: أنا أريد استكمال حياتي هنا، ثانيًا: لا يوجد مالٍ كافٍ لتكلفة السفر والعيش بمصر الآن، ثالثًا: -وهذا الأهم- " عائشة" لن تترك فلسطين مهما فعلت، وأنا لن أترك " عائشة" مهما حدث
- أنا لدي مالٍ كافي لتكلفة السفر، والفريق يريدك بشدة الآن وبطلبات مادية أعلى مما كنت تحصل عليها، تستطيع من خلالها تلبية طلبات أسرتك، وسوف نعود إلى فلسطين في الإجازات دائمًا، مثلما فعلت أنا.

فنظر له "ليث" وقال:

- لن أترك فلسطين ثانيةً، آسف يا كابتن، ذلك القرار اتخذته منذ أن وضعت قدمي بها ثانيةً

فاعتدل "صبري" من جلسته ونظر إليه قائلًا:

- كان أبيك وأخوك هنا، الآن أنت وحيدًا، ثانيًا: أنت مسؤول عن كل النساء والأطفال المتواجدون هناك بالمخيم، من أين ستجلب لهم

العيش والماء هنا ؟! ليس لديك عمل ولا صنعة، لا تجيد فعل شيء غير كرة القدم

صمت "ليث" قليلًا ثم قال:

-إن أقنعت "عائشة" بالسفر معنا سوف آتي معك إلى مصر، وإن لم تقنعها فلا تفكر بذلك الموضوع مجددًا

فابتسم "صبري" وشعر بأنه أخيرًا انتصر على أفكار "ليث" الصبيانية من وجهة نظره وقال:

- سوف أقنعها وسوف ترى

فضحك "ليث" بقوة وقال:

- تذكرني بمثل كان يرددونه المصريين دائمًا
- ما هو؟
- عشم إبليس في الجنة

فغضب "صبري" بشدة وقال:

- الله يسامحك يا بني

فضحك "ليث" بشدة أكثر وأكثر وقال:

- أمزح معك لا تغضب، هيا بنا نعود، ونرى ما سيحدث الأيام المقبلة
- حسنًا، هيا بنا .

في اليوم التالي بعد تناول وجبة الغداء، الكل حاضر للاجتماع الأسري الذي طالب به "ليث"، ليبدأ "ليث" حديثه قائلًا:

- كابتن "صبري" يريد أن يخبركم بشيء مهم

فوقف "صبري" من على مقعده وبدأ حديثه قائلًا:

- كما نعلم جميعًا أن الحياة هنا أصبحت مستحيلة، خصوصًا بعد الأحداث الأخيرة، ونتيجةً لذلك قررتُ أنا و"ليث" العودة إلى مصر بصحبتكم، والمجيء إلى هنا في الإجازات والأعياد

فتحولت ملامح الجميع إلى البشاشة والسعادة بذلك القرار، ماعدا " عائشة" التي عبَّرت عن رفضها عن طريق خروجها من الخيمة، ومن خلفها "صبري" و"ليث" الذي قام بالنداء عليها وعندما وقفت قال:

- أنا لم أتخذ قرارًا بعد، إن رفضتِ فلن نسافر، وذلك كان اتفاقي مع كابتن "صبري"

فأخذت نفسًا عميقًا ثم قالت:

- يا "ليث" أنا باقية على تلك الأرض لحين فنائي، سوف أُدفن هنا بجانب ابنتي، وفي ذات الوقت أنا لستُ أنانية حتى أُجبركم على البقاء معي، لذلك لا تربط نفسك بي

فابتسم كابتن "صبري" بعد سماع ذلك الحديث من " عائشة" ونظر إلى "ليث" وقال:

-أعطتك تفويضًا بالسفر، الآن يمكنك المجيء معي والعودة لها في الإجازات والأعياد

فابتسم "ليث" ابتسامة سخرية من حديثه وقال:

- لا يلدغ المؤمن من الجحر مرتين، لن أعود معك، ولن نترك فلسطين تمامًا مهما حدث سوف نبقى هنا وسوف نُدفن هنا، نحن لم نُخلق للعب كرة القدم والترفيه، نحن خُلِقنا للشقاء والحرب والاستشهاد، ولا أريد الحديث في ذلك الموضوع ثانيةً

ثم سحب "عائشة" من يدها وعاد بها إلى الخيمة، ليقف في المنتصف أمام الجميع ويقول:

- لن نترك فلسطين، أنا مسؤول عن كل فرد هنا، سوف أعمل أربع وعشرين ساعة إن لزم الأمر، ولا أريد نقاشًا في ذلك الموضوع ثانيةً

ساد الصمت على المكان تمامًا، قبل أن يعود "صبري" من الخارج ليتحدث ثانيةً قائلًا:

- أعتذر لكم جميعًا، أنا كنت أُريد المساعدة فقط لا غير، سوف أغادر غدًا بإذن الله، سوف أشتاق لكم جميعًا، وشكرًا على حسن ضيافتكم

فذهب له "ليث" واحتضنه وقال:

- شكرًا لك على محاولتك لمساعدتنا، وأنت فرد من تلك العائلة الصغيرة، وسوف ننتظرك دائمًا في جميع إجازاتك السنوية

بابتسامة صغيرة:

- بكل تأكيد

انتهت الجلسة العائلية هنا، وعاد كل منهم إلى خلوته بنفسه وأفكاره وأحزانه.

* * *

(١٨)

بعد مرور فترة من الزمن قضاها "ليث" في العمل بإحدى مزارع الزيتون، حياته كانت روتينية إلى أبعد الحدود يقضي معظم وقته في العمل وباقي الأوقات مع أولاد أخيه "يافا" و"سيف الدين"، يحاول أن ينشأهم كما اوصاه أبوه على حب الوطن والتضحية من أجله واليوم الموعود الذي سيعودون فيه إلى بيتهم بيافا، بينما "عائشة" برغم تقدمها في العمر لم تستسلم لليهود، واستمرت في نضالها حتى أصبحت أول قائدة في حركة المقاومة من النساء، و"أحمد" ظل حبيس كرسيه المتحرك بعد فقدان قدميه، وقرر السفر لأبيه وأمه إلى تشيلي، وعم "أمين" وزوجته ظهرت عليهم علامات الشيخوخة وأصبحا في أرذل العمر، و"أميرة" كانت تهتم بأمر أطفالها فقط؛ فهُم كل حياتها، و"صبري" لم يعد إلى فلسطين ثانيةً وانقطعت كل وسائل الاتصال بينهم تمامًا.

وفي يوم من الأيام قرر "ليث" أن يروي كل ما حدث إلى "سيف الدين" و"يافا"، فاصطحبهم معه إلى الشاطئ وهو المكان المحبب لهم ثلاثتهم، ثم استلقى على ظهره وهم بجانبه واستمر يروي كل ما حدث بكل تفاصيله لقرابة الثلاث ساعات، ولكن لم يذكر أنه هو من أطلق الرصاص على أخيه، وعند انتهائه جلس على ركبتيه ونظر إليهم وقال:

- أعلم مدى صعوبة تلك الأحداث والذكريات عليكما، ولكن لابد أن تعلموا ماذا فعل اليهود بأسرتكم كلها، وأنتم الآن أصبحتم شباب تلك

الأمة، وعليكم الدفاع عنها والانضمام لمقاومتها إن أردتم، ولكن وصيتي لكم أن يأتي اليوم الذي تعودون فيه إلى منزلنا بيافا الجميلة، وإن لم تستطيعوا فعليكم توريث ذلك الحلم والمفتاح لأبنائكم، حتى يعود أحفادنا إلى منبت أجدادهم .

فقام كليهما بهز رأسه، وقال "سيف الدين":

- لا تقلق، هذه العائلة لا تنجب إلا رجالًا، سوف أنضم للمقاومة قريبًا إن شاء الله

فنظرت يافا لأخيها بغضب وقالت:

- أنجبت نساءً ستحرر فلسطين يومًا ما، ليس رجالًا فقط

فابتسم "ليث" واحتضنهم وقال:

- أنجبت نساءً بقوة الرجال، وأنجبت رجالًا بقوة لا مثيل لها على وجه الأرض، سوف أعود إلى العمل، هل تريدون شيئًا أجلبه معي وأنا قادم ليلًا؟

فردوا في صوتًا واحدًا:

- لا، شكرًا لك
- حسنًا، استعدوا لزيارة قبر أبيكم وجدكم غدًا إن شاء الله
- إن شاء الله

فابتسم لهم وقبّل كل منهم على رأسه ورحل، بينما هم ظلوا على الشاطئ يتناقشون في بعض الأمور الدينية والسياسية كما كان يفعل "سيف الدين" و"ليث" سابقًا.

* * *

في صباح اليوم التالي ذهبا إلى قبر أبيهم وجدهما بصحبة عمهم وبعد قراءة الفاتحة، وقف "ليث" بينهم ووضع يده اليمنى على كتف "سيف الدين"، ويده اليسرى على كتف يافا ثم قال:

- أعلم أنك تشعر بنا الآن يا أبي، ترى كيف أصبحوا "سيف الدين" و"يافا"؟ رجل وامرأة بمائة رجل، وصيتك سلمت لهم ليلة أمس وأصبحوا هم المسؤولون على تنفيذها أو تسليمها إلى الأجيال القادمة من عائلة "ياسين" إن شاء الله، وأنا حققت لك ما كنتُ تتمنى وهو الحفاظ عليهم وتربيتهم تربية صالحة حتى يصبحوا قادرين على تحمل الصعاب والحرب، وأصبح الآن الوقت المناسب للعودة ثانيةً إلى صفوف المقاومة.

فنظروا له بعلامات من الخوف على وجوههم وقال "سيف الدين":

- لا، لن تعود للمقاومة

فابتسم "ليث" وقال:

- على كل رجل ما زال لديه القدرة على الوقوف على قدمه أن يشارك في المقاومة والنضال والحراك الشعبي ضد العدو الصهيوني

- ولكن نحن بحاجة إليك معنا الفترة القادمة
- وانا لم أترككم، حتى إن استشهدت سوف أبقى معكم بروحي وهي الأهم

فهز "سيف الدين" رأسه ثم وضعها على كتف عمه، بينما ظلت "يافا" صامتة مكتفية باحتضانه فقط حتى رحلوا وعادوا إلى المنزل.

* * *

وفي ليلة إحدى العمليات التي سيشارك فيها "ليث" كان يجلس وحيدًا على شاطئ غزة يفكر ويفكر، لديه شعور قوي أنها الليلة الأخيرة في هذه الدنيا، ثم بدأ في الحديث مع نفسه بصوت عالٍ لأول مرة قائلًا:

- يبدو أن لقائي "بسيف الدين" وأمي وأبي و"صبا" و" فيروز" اقترب أكثر من أي وقت مضى، كم تمنيتُ تلك الشهادة في كل عملية ولم أحصل عليها، ولكن تلك الليلة أشعر بها بقوة.

ثم ظل يبتسم ويبتسم ووقف من جلسته واتجه نحو المنزل لقضاء بعض من الوقت مع "سيف الدين" و"يافا".

وعند دخوله للمنزل قام بالنداء عليهم لكن لم يجبه أحد، فذهب إلى غرفتهم ليجدهم نائمين، فبدأ بغناء إحدى أغاني المقاومة الفلسطينية للشاعر محمد حسيب القاضي حتى يوقظهم

"بإيدي رشاشي وبدي أضلني ماشي وأرضنا المحتلة ما بترجع بلا شي وبدي أضلني ماشي وبدي أضلني ماشي رشاشي ورصاصي طريق الخلاص واللي بيوقف سيري بنطلقه بالراس وبدي أضلني ماشي وبدي أضلني ماشي رشاشي

رفيقي أخويا وصديقي لغوتنا مفهومة بينجدني بالضيق وبدي أضلني ماشي وبدي أضلني ماشي"

ظل هكذا لمدة خمس دقائق حتى استيقظ "سيف الدين" أولًا، ظل ينظر له بأعين منتفخة من أثر النوم ويحرك رأسه يمينًا ثم يسارًا مع بعض العلامات بوجه تدل على عدم رضائه على ما يحدث.

لكن لم يغير كل ذلك شيئًا، بل أزاد من حماسة "ليث" وبدأ في أغنية أخرى قائلًا:

"البندقية بيد، غصن الزيتون بيد، ثوار لآخر حد، وبجماهير الشعب نخوض غمار الحرب، ضد الصهيونية والإمبريالية، وهدفنا دولة فلسطينية، وفلسطين دولة ديموقراطية، لا إرهابية ولا عنصرية وطريقك يا ثورة طريقنا بنشقوا برصاص بنادقنا ولآخر نبضة في عروقنا."

فنظر له "سيف الدين" ثم قال:

- ما سر ذلك الحماس في منتصف الليل؟

فابتسم "ليث" وقال:

- سوف تعلم غدًا إن شاء الله، الأهم الآن أُريد أن أجلس معك أنت ويافا، سوف أذهب لتحضير الطعام حتى تفيق وتوقظ أختك
- لا، هذا الكائن لا يستيقظ أبدًا، عليك مساعدتي في تلك المهمة

فضحك "ليث" ثم قال:

- احضر لي بعض الماء البارد واترك الباقي علي

وعندما أحضر "سيف الدين" الماء ظل "ليث" يقطر قطرة قطرة على رأس يافا، ولكنها لم تشعر بشيء أبدًا، حتى نفذ الماء من الزجاجة ولم تستيقظ يافا أيضًا، فنظر "ليث" إلى "سيف الدين" وقال:

- هل تفكر فيما أفكر فيه؟

فهز "سيف الدين" رأسه وقال:

- أعتقد أنه الحل المناسب
- حسنًا، هيا بنا

فحملها "ليث" وظل يركض بها في المنزل حتى استيقظت وقالت:

- القيني من الشرفة أفضل، تحملت الماء والغناء بصوت مزعج وقلت سوف يرحلون الآن، ولكن لا جديد

فضحك "ليث" كثيرًا وقبَّلها من رأسها وقال:

- سوف أعد لكم القهوة، ثم نعد بعضًا من الطعام الشهي، ونجلس معًا ونصلى الفجر حاضرًا الليلة في المسجد

فابتسمت يافا وقالت:

- حسنًا، سوف أذهب لأستحم حتى تعد لي فنجان القهوة يا حبيبي

ثم قبَّلته من وجنته ورحلت، فابتسم، ولكنه شعر بقليل من الحزن الذي تسرب إلى قلبه بسبب ما قد يحدث غدًا وفراقه لهؤلاء الأطفال الكبار .

* * *

في اليوم التالي وأثناء العملية التي كانت عبارة عن هجوم مسلح على مبنى شالوم مائير للتسوق استُشهد "ليث" بالفعل، ولكن بعد قتل عدد كبير من الصهاينة وانتشر صدى تلك العملية في فلسطين كلها، وظل صداها يقذف الرعب في قلوب اليهود الذين ظلوا في منازلهم لشهور خوفًا من الموت، على عكس الفلسطينيين، فبرغم كل المذابح التي أعدها الصهاينة للفلسطينيين لم يهابوا الموت تمامًا، بل كانوا يرغبون في الموت والاستشهاد كل يوم وكل ساعة وكل دقيقة، وظلت ذكراه في بال كل فلسطيني يتحاكى عن بطولاته وإنجازاته منذ أن كان لاعب كرة قدم مشهور بمصر، وترك الشهرة والحياة الكريمة من أجل الدفاع عن وطنة وصولًا إلى عملية استشهاده البطولية.

ظلت القضية الفلسطينية تزداد تعقيدًا أكثر وأكثر مع مرور الزمن، اليهود استحوذوا على فلسطين كلها ماعدا غزة فقط، الدول العربية أصبحت ممزقة تمامًا، أصبح التطبيع مع الكيان الصهيوني علانية أمام الجميع، ظن البعض أن الأحوال سوف تستمر هكذا من السيء إلى الأسوَأ حتى تُمحى فلسطين من على الخريطة تمامًا على أيدي بني صهيون، ولكن ذلك الشعب لم ولن يستسلم أبدًا؛ فهو شعب مليء بالأبطال الحقيقين .

* * *

و رغم كل ذلك لم يعرف الإحباط سبيل لمنزل آل "ياسين" تمامًا، وظلت الوصية والمفتاح يُسلمون من جيل إلى جيل، حتى جاء حاكم عربي عادل، جمَّع جميع الدول العربية تحت لواء واحد وجيش واحد ومسمى واحد وعلم واحد، وأصبحت دولة الولايات المتحدة العربية التي جاءت من بعيد لتخليص فلسطين وشعبها من كم الألم والمرار والدم والحزن الذي استمر معهم لمائة عام، وبالفعل تم تحرير فلسطين كلها بعد مائة عام من الاحتلال، وعادوا اليهود مشتتين في جميع أنحاء العالم، وشارك في تلك الحرب "معاوية السيد سيف الدين سيف الدين ياسين"، الذي قام بتنفيذ الوصية وعاد إلى يافا ثانيةً هو وكل سلالة عائلة "ياسين" في ذات المنزل الأثري المتهالك الذي يحمل ذكريات ومواقف وأرواح أجدادهم، وأصبحت الدولة العربية المتحدة هي الدولة العظمى التي تحكم العالم أجمع، وعملتها أصبحت العملة الرائدة على مستوى العالم، وعادوا العرب من بعيد إلى الأمجاد مرة أخرى ليسطروا التاريخ ثانيةً.

نهاية تلك الرواية هي حلم وتمني ويقين، حلم: منذ طفولتي في المرحلة الابتدائية، وأول مظاهرة أشارك بها وهتافنا الشهير حينها (يا شارون قول الحق أمك قرعة ولا لا)، وتمني ظللت مرارًا وتكرارًا أتمنى من الله تحقيق ذلك الحلم وأن أشارك في ذلك التحرير، ويقين بالله القادر أن كل ذلك سيحدث يومًا ما .

النهاية